

ثبّت النادر
،، العالمين
شعرنا به

■ عادل ثابت ■



■ تصميم الغلاف والإخراج الفني

جمال عفيفي

مطبوعات
أخبار اليوم
قطاع الثقافة

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعدة

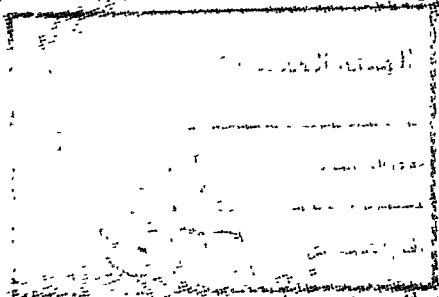
دار أخبار اليوم
قطاع الشفافة
جمهورية مصر العربية
٦ ش الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

١٠٩٧

مطبوعات



دار النشر

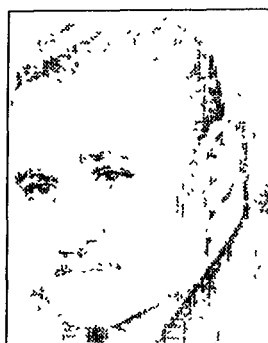


١٠٩٧

Publication of the Arabic
Bible, Arabic Edition

مبىد الناصر .. والفنايين غداروا به

■ عادل ثابت ■



■ تمهيد ■

تتأثر حياة الشعوب ومصائرهما - بما لا يدع مجالا
للشك - بأبلغ التأثير بشخصيات حكامها وعلى الرغم من
ان كل سمات القيادة هي سمات لازمة لشخصية
الحاكم إلا أنه يظل انسانا معرضا - كبقية البشر -
للخطأ والمرض والموت

وكما فعلت في كتابى السابق عن الملك فاروق فإن

■ عبد الناصر والذين غدروا به ■ ■

مذكراتي المنتورة في هذا الكتاب تتركز على خلفه الرئيس جمال عبدالناصر الذي يعد - في تصوري - ضحية أخرى لخianات متعاقبة إلا أن أول المستولين عما آل إليه عبدالناصر هو عبدالناصر ذاته ذلك لأنهم اهتمل مرضه وألقى بنفسه في حياة مشحونة بالضغوط وردود الافعال المبالغ فيها

وقد أدت به هذه الضغوط إلى التعرض لمخاطر «البارانويا» وهو مرض يؤدي بصاحبه إلى استبعاد أقرب الأصدقاء والمريدين الأمر الذي قد ينتج عنه عداوات وخianات في المستقبل

ولذا فقد كان على عبدالناصر أن يواجه مؤامرات من قبل أقرب أصدقائه ومستشاريه مثل رئيس أركانه عبدالحكيم عامر، ورئيس حصار المحابر (المصاب هو الآخر بالبارانويا) صلاح نصر لقد حدث هذا منذ ما يقرب من ٣٥ عاما سرت فيها مصر باحداث تنسّى ولولا حرية التعبير التي أتى بها عصر مبارك لما قدر لهذا الكتاب أن ينتشر في مصر وعندما كتبت هذا الكتاب كان هدفي الوحيد من نقد وتقييم اخطاء القيادة الناصرية دون مداهنة أو مواربة، ولعل الجهد المبذول في هذا الكتاب يسفر عن آثاره الجدل حول عبدالناصر والناصرية

ولعل مذكراتي هذه تنبع من حكم قربي للقيادة الناصرية إذ كنت في ذلك الوقت أعمل محررا وناثرا لجريدة اقتصادية وساسية بخدم احبياحات السياسة المصرية الخارجية، وقد اتاح لي ذلك أن أكون شاهدا على مرض الرئيس، إذ أصبحت أنا بعد ذلك ضحية لهذه البارانويا المتطورة الا أنني على فاعة تامة بأن عبدالناصر - مثله مثل فاروق - له الحق في أن ينصفه التاريخ

واحدة من السمات السلبية التي يتسم بها المصريون هي نظرهم لقادتهم إما في صورة شياطين أو في صورة آلهة بالنسبة لبعض

المصريين لا يصدر عن القادة إلا كل السوء، وبالنسبة لبعضهم الآخر
فهؤلاء القادة معصومون تماما، ولذا فإننا أحيانا كثيرة ما ننسى أن
الرؤساء والحكام هم بشر وليسوا فراعنة مؤلهين انهم متلبا جميعا
معرضون للخطأ والضعف، إلا أن لهم الحق أن يصفوا على أن
يكون هذا الانصاف والتقييم موضوعيا وعادلا



■ مقدمة ■

قد تستدعى المشابهة بين عنوان هذا الكتاب وعنوان سابقه عقد مقارنة بين فاروق وعبدالناصر. وعلى الرغم من صعوبة عقد هذه المقارنة إلا أن الاثنین يشترکان فعلا فی بعض الأمور. فکلاهما قد حکم مصر، وکلاهما بدأ حکمه بطموحات وآمال کبار، کما انتهى حکم کل منهما بکارثة ففاروق تنحى عن العرش بينما أودى ■ عبد الناصر والذین غدروا به ■ ٩ ■

المرض بحياة عبدالناصر

تميز فاروق عن عبدالناصر بصحة جيدة وحالة نفسية أكثر ثباتا، ولكنه افتقر مع ذلك إلى النشاط والحركة الدبناميكية التي تمتع بها عبدالناصر، هذا فضلا عن ارادة عبدالناصر القوية التي لا يعيها شيء لقد كان لعبدالناصر القدرة على اتخاذ القرارات - سواء أسفرت عن نتائج سلبية أو ايجابية - بينما افتقر فاروق إلى هذه القدرة كما افتقد إلى الهدف الواحد الواضح. على أن ما يجمع الاثنين انهما وصعا ثقنيهما في أيدي أشخاص لا يتمتعون بالكفاءة فالجيش في عهد فاروق كان على رأسه أحد قادة الشرطة السابقين وكان غير مؤهل كما افتقر إلى الخبرة أما الجيش في عهد عبدالناصر فقد كان على رأسه واحد من المقربين من عبدالناصر وهو عبدالحكيم عامر إلا أنه كان مازال شابا يفتقر للكفاءة.

لقد حدث في عصر كل من فاروق وعبدالناصر أحداث عسكرية جسيمة إلا أنه يوجد فرق في الحالتين. ففاروق لم يتدخل في العمليات الحربية التي كانت تؤديها قواته، وعلى الرغم من ذلك فقد وحه إليه اللوم بعد هزيمة ٤٨؛ أما عبدالناصر فكان مستولا بشكل مباشر عن الأخطاء وسوء الإدارة التي أدت جميعا إلى كارتئين عسكري في عامي ١٩٥٦ و ١٩٦٧

أما عن الاقتصاد المصري، فقد تمتع في عهد فاروق بالاستقرار فقيمة الجنيه المصري كانت أكبر قلبلا من قيمة الحنيه الاسرلنى، كما كان الرصيد القومى بحالة جيدة إذ إن مصر بدلا من أن تكون هى المدينة كانت هبال دول أخرى مدينة لها

لا يمكن انكار وجود قدر معين من الفساد في عهد فاروق وإن كان الفساد مرضا اجتماعيا ملازما لكل المجتمعات إلا أنه كان محدودا في عهد الملك ولم يصل إلى المستوى الذى وصل إليه في الحقبة الناصرية

إن هناك شيئا واحدا مؤكدا وهو أن الاقتصاد المصرى ومستويات المعيشة كانت فى حالة جيدة تماما حتى ليلة تنحى فاروق أكثر كثيرا مما أصبحت عليه عندما مات عبدالناصر.

لكى نكون منصفين يجب أن نشير إلى أن المشاكل السكانية التى ابتلى بها عبدالناصر لم تكن موجودة فى عهد فاروق، فمجسوع الأراضى الزراعية التى كانت موجودة وقت فاروق كانت كافية تماما لاطعام العشرين مليون نسمة الموجودين وقتها وبمرور الوقت تضاعف عدد السكان إلى أن وصل الآن إلى ٤٥ مليوناً بينما تبث نسبة الأراضى الزراعية عند ٤' وهنا نضع أيدينا على أحد أكبر الانتقادات التى يمكن أن توجه لعبدالناصر

فلقد تبث أنه بالإمكان استصلاح ما لا يقل عن ٢٩ من الأراضى المصرية بغرض الزراعة، ومن ثم فإن استثمار مصادر الدخل القومى فى استصلاح الأرض كان حتما سيقفل من التهديد السكانى إلا أن عبدالناصر كان قد وقع أسيرا للأفكار الاقتصادية ذات الأهداف السياسية التى قدمها له الماركسيون المصريون والمستشارون الروس. وقد أدت به هذه الأفكار إلى الإصلاح الزراعى الذى نتج عنه ليس فقط القضاء على عدد غير قليل من ملاك الأراضى الزراعية الأكفاء ولكنه أضر بنتاجية وخصوبة الأرض الزراعية فضلا عن ذلك فقد اتجه عبدالناصر بشدة إلى الاستثمار الهائل وغير الحكيم فى التصنيع وذلك على نحو مدمر ويفتقر إلى التخطيط السليم، فلو قدر لمصر أن تستثمر جُل رأسمالها فى مجال الزراعة واستصلاح الأراضى لأصبحت فى حالة مختلفة وأكثر رخاء اليوم

يميل كتابى اذن إلى أن يكون ملاحظات شخصية تتخذ شكل التقييم النقدى والموضوعى لاسهامات الحقبة الناصرية فى تاريخ مصر الحديث ويهدف هذا الكتاب فى مجمله إلى وضع الأمور فى

نصابها الصحيح فيما يتعلق بتاريخ تلك الحقبة.

لقد كان لى بحكم عملى كمحرر وناشر للجريدة الاقتصادية السياسية المصرية تعاوناً وثيقاً مع القيادة العسكرية والاقتصاديين كما أن عبدالناصر نفسه كتب أول مقال فى جريدتى ووقعه بنفسه وقد كان دائماً يدافع عن جريدتى ويظهر لى الود حتى أصابت «البارانويا»، ولذا فليس لدى أى دافع يجعلنى أكره عبدالناصر بما كان قصدى هنا أن أقدم لقرائى تقييماً موضوعياً لفترة حكمه.

ووفاء لذكرى عبدالناصر، وبغض النظر عن النقد الشديد الموج إلى عبدالناصر سواء فى مصر أو خارجها فقد شعرت بأهمية ابرا، جانب مهم فى شخصيته وهو حالته الصحية.

لقد عانى عبدالناصر بشدة من المرض، وعلينا أن نأخذ ذلك و الاعتبار عند النظر فى سياساته ومعاملته للمقربين له. وقد تكور شهادتى هنا لها قيمتها خصوصاً لكونى أحد ضحايا هذا المرض، فقا سجننى عبدالناصر دون أى سبب له مبرراته، وفى السجن تعرضت لمعاملة مهينة لا يعامل بها إلا المجرمون.

لقد عانى عبدالناصر على مدار حياته من متاعب صحية أدت بمرور الوقت إلى مرضه الأخير الذى أودى بحياته فى سن صغيرة لقد دخل عبدالناصر الحياة السياسية وهو يحمل بداخله احباط نفسيا ازاء كل سلطة وخصوصاً السلطة الحاكمة فى حقبة فاروق، ويرجع ذلك إلى طفولته وعلاقاته العائلية خصوصاً علاقته السيئة بوالده الذى تزوج للمرة الثانية من سيدة ثرية بالاسكندرية

كما أصيب بالاحباط مرة أخرى فى محاولته الأولى لالتحاق بالأكاديمية الملكية العسكرية وذلك لافتقاره إلى شخصية بارزة تدفع به، ولكنه قبل بعد ذلك نتيجة لتغير اللوائح. وعند التحاقه بالخدمة توالى عليه الاحباطات النفسية، والضغط

التي تعرض لها خصوصا عند حصار الاسرائيليين لوحدة العسكرية في الفالوجا. وقد أدت كراهيته المتأصلة للسلطة، وحنقه على ما اعتبره خيانة الملك وقواده إلى المراحل الأولى «للبارانويا» التي أسفرت عن عواقب وخيمة فيما بعد.

لقد كانت سنوات حكم عبدالناصر الأولى - التي كان عليه فيها أن يواجه العديد من المؤامرات بالاضافة إلى محاولة لاغتياله - كافية جدا في رأى أطبائه لتطور مرض السكر لديه. كما أن كثرة المشاكل التي تعرض لها أدت به في النهاية إلى حالة فصام واضحة، وكثيرا ما كان الصحفيون الأجانب يصابون بالدهشة عندما يروا أمامهم شخصية مهذبة وشرسة وهى تنقلب في لحظات إلى شخصية خطيب يخط فيهم باندفاع وتهور.

ولعل اهمال عبدالناصر في علاجه لمرض السكر ليس بالشئ المستغرب على مريض الفصام فقد شملت شكوكه أيضا أطباء ونصائحهم وقد ظلت مشاكل السكر في تفاقم مستمر حتى وصل معدل السكر في الدم إلى نسبة خطيرة تتراوح ما بين ٤ إلى ٥ جرامات في اللتر. كما كشفت فحوصات الدكتور المفتى طيب عبدالناصر آنذاك عن اصابته أيضا بتصلب الشرايين وعلى الرغم من الاستعانة بأحد الأطباء الروس وهو الدكتور «افجوينى شازوف» الذى أرسل خصيصا من الاتحاد السوفيتي فإن حالة عبدالناصر الصحية ازدادت سوءا، وأسفر ذلك عن أزمة قلبية حادة أصابته في سبتمبر عام ١٩٦٩ اضطر معها إلى الاختفاء من الحياة العامة لمدة ستة أسابيع

حتى ذلك الحين كان تفكير عبدالناصر قد بدأ في التأثر إذ لاحظ الأطباء وجود تلف في بعض أجزاء المخ، كما بدأ الدكتور المفتى آنذاك يرى بوادر صرع كما رأى معظم المتخصصين أن مريضا في مثل

■ عبدالناصر والذين غدروا به ■ ١٣ ■

حالته يعاني من أزمات قلبية متكررة وتصلب شرايين ومشاكل متعلقة بالكوليسترول والسكر أصبح معرضا لتلف بعض مراكز المخ ينتج عنه هبوط في الدورة الدموية في المخ في مثل هذه الحالة الصحية المتردية فإن أى أزمة قلبية بسيطة قد تؤدي للوفاة. وقد حدث في يوم ٢٧ سبتمبر من عام ١٩٧٠ أن سجل رسام القلب الكهربائي أزمة قلبية ولجأ الأطباء وقتها — في محاولات مستميتة منهم — إلى استخدام الصدمات الكهربائية لإعادة قلبه للحياة وعندما فشل ذلك لجأوا إلى التنفس الصناعي إلا أن كل هذه المحاولات لم تكن لتنقذ الرئيس الذي رحل في ذلك اليوم

أود أن أجدب الانتباه هنا إلى واقعة مأساوية حدثت في الآونة الأخيرة. وهي حرب الخليج الثانية. فهذه الكارثة كان وراءها ديكتاتور غير متزن ذهنيا استطاع أن يتحدى العالم كله كما استطاع أن يجمع حوله الرأي العام في بلده وفي عدة بلاد أخرى وهذا يذكرنا بالهستريا الجماعية التي ساندت عبدالناصر عندما أراد التنحي عام ١٩٦٧. فبعد أن تسبب في واحدة من أسوأ الهزائم في تاريخ مصر والتي كلفتها الكثير وبعد أن تسبب في جعل الاسرائيليين يحتلون الضفة الشرقية من القناة سارت الجماهير المصرية في مظاهرات جماعية تدفعها العاطفة العمياء لكي تستعيده للسلطة

الشيء الغريب فيما يتعلق بالحالة الذهنية والصحية لعبدالناصر انه كان قادرا في مثل حالته على استدراك حماس الجماهير وتعاطفهم هذا ما كان يميز شخصيات الكثير من الطغاة مثل هتلر.

هل من الممكن الآن ونحن بملك أدوات البحث والمعرفة الحديثة أن نجد وسيلة ما لدراسة سيكولوجية الجماهير والهيستريا الجماعية؟ إنها مشكلة خطيرة حقا أن يتحكم فرد يعاني من عدم الاستقرار النفسي في مصر شعب تخدعه المظاهر فمن ضمن أعراض الفصام

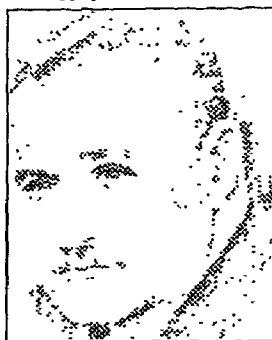
أن المريض يمكنه لفترة طويلة أن يتخذ مظهر الاتزان الخارجى والتشعور بالمسئولية فلا يلحظ من حوله وجود المرض حتى يظهر على السطح فى لحظة معينة وبشكل يصعب السيطرة عليه الجدير بالذكر هنا أن الدكتور المفتى تم اغتياله على أيدي رجال جهاز المخابرات الذى كان يرأسه فى ذلك الوقت صلاح نصر الذى كان يتسم بالجهل والمرض فضلا عن طاعته العمياء للرئيس. ولم يكن وراء قتل الدكتور المفتى إلا تحذيره الدائم للحكومة المصرية من المخاطر التى يمكن أن يواجهها المجتمع على يد ديكتاتور مريض لعل الصورة تتضح تماما فى ضوء ما حدث فى الخليج منذ بضعة سنوات. فيجب أن يتضح للجميع الحنون الذى وصل إليه صدام حسين وما كان يمكن أن يسفر عنه هذا الجنون. فلو كان صدام حسيب قد انتظر سنتين قبل اعتدائه على الكويت لكان فى إمكانه أن يحجز قوة نووية فى وقت يقوم فيه بالتخلص التدريجى من الأسلحة النووية

يمثل تاريخ عبدالناصر ومشاكله الصحية اسهاما مهما فى تاريخ الشرق الاوسط وتكمن أهمية ذلك هنا فى أن حياة عبدالناصر تقدم لنا مثلا على العلاقة بين الحالة الصحية للحاكم أو السلطة السياسية وقراراته التى تؤثر على مصير شعبه

الجزء الأول

الأيام الأولى

● الفصل الأول ●



الثَّيَّانِ الثَّالِثِي الثَّوْرَةُ

لقد كان يوم السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٢ يوماً عصيباً.. فقد رحل الملك ظهر ذلك اليوم كما تم سحب الحرس من قصر الأميرة فايزة بالاسكندرية. وساد ذلك اليوم جو عام من الشك وعدم التيقن عما قد تسفر عنه الأمور. كما امتلأت شوارع الاسكندرية في ذات اليوم بالجماهير المؤيدة للثورة، هذا فضلاً عن أن

■ عبد الناصر والذين غدروا به ■ ١٩ ■

■ الأيام الأولى للثورة ■

البعض قد حاول مهاجمة القصر ولكن الحرس الملكي صد هذه الهجمات، والجدير بالذكر أن الملك شخصياً أصدر أوامره للحرس بألا يطلقوا النار لأنه لا يجب لمصريين أن يطلقوا النار على مصريين. وفي تلك الليلة قررنا أنا وزوجتي أن نكون مع الأميرة فايزة وزوجها «بولنت» في حالة حدوث أية متاعب. وفي ذلك اليوم لم يكن عمر الثورة أكثر من ثلاثة أيام كما أن هوية من قاموا بها لم تكن معروفة تماماً.

لقد رحل فاروق دون مقاومة تذكر؛ ولو كان قد اتخذ قراره بالبقاء والمقاومة لعله قد انتصر في ذلك اليوم، ففي تلك الآونة كان لم يزل يحتفظ بولاء قوات من البحرية والحربية ليست بالقليلة. إلا أن فاروق اكتشف بعد ذلك وجود خيانة على كل مستوى؛ فالقائد العام حسين باشا خدعه بأن أوعد له بولاء جميع ضباطه؛ هذا علاوة على أن جميع الوزراء كانوا موالين تماماً لطموحاتهم الخاصة، وكان عندما يحدث تعارض بين ولائهم لطموحاتهم وولائهم للملك كانوا يختارون دون تردد مصالحتهم الشخصية. بالإضافة إلى هؤلاء فقد عمل مسئول قصره جاهداً على عزله عن شعبه وعن جيشه؛ كما أن العملاء الأمريكيين كانوا يدبرون العديد من المؤامرات ضده. كما قامت وسائل الإعلام الدولية آنذاك بشن هجمات ضارية على شخصية الملك لتيقنهم بتأييده للفلسطينيين ضد إسرائيل.

أود أن أذكر هنا بأن القوات التي أظهرت ولاءها للملك كانت قوية بدرجة كافية. فقد كان بالاسكندرية الآلاف من الجنود تحت قيادة العديد من الضباط الموالين للملك. كما كان بحوذة البحرية مدافع ثقيلة بقطر ٤,٧ بوصة تعضدها مدافع أخرى بقطر ٦ بوصات وهو ما قد يفوق ما كان بحوذة قادة الثورة آنذاك. وبدلاً من اللجوء لسفك الدماء وما يترتب عليه ذلك من مذابح وحرب أهلية تعطى فرصة للتدخل الأجنبي وجد فاروق أنه من الأشرف له أن يرحل.

■ الفصل الأول ■

إلا أن رجليه خلّف وراءه شعورا بعدم الأمان لدى المقربين من الملك والذين أظهروا ولاءهم له. من بين هؤلاء كانت الأميرة فائزة شقيقة فاروق؛ فعلاوة على جمالها الشديد الذى كان ماثرا للكثير من الشائعات والحكايات فقد كانت تتمتع أيضا بشخصية قوية، فعلى الرغم من ولائها الشديد لأخيها إلا أنه كان من المعروف عنها أنها كانت دائما على استعداد للوقوف ضده اذا ما استدعى الأمر ذلك. وكانت تلك الشخصية القوية كفيلة بأن تجعل للأميرة فائزة ملفا لدى المخابرات العسكرية باعتبارها شخصية سياسية مؤثرة يجب مراقبتها وسنعود فيما بعد لما حدث للأميرة فائزة وعلاقتها بمجلس قيادة الثورة.

وبعد هذا اليوم العصيب مرت الليلة بشكل طبيعي ولكنها لم تكشف لنا عما يخبئه المستقبل.

لم تأت الأيام القليلة التالية بحدث ذى أهمية كبيرة. فمصر كانت لم تزال ملكية، كما رحل الملك الجديد أحمد فؤاد - الذى كان لا يزال رضيعا - مع والده إلى المنفى تاركا وراءه مجلس وصاية مكونا من الأمير عبدالمنعم ابن الخديو عباس حلمى الثانى، وعلى ماهر باشا ورشاد مهنا وهو أحد أعضاء مجموعة الضباط الذين قاموا بالثورة.

وهكذا أصبحت البلاد تحت الحكم الاسمى للواء محمد نجيب مع الاحتفاظ بعلى ماهر باشا رئيسا للوزراء. والجدير بالذكر أن جمال عبدالناصر القائد الفعلى للثورة قد فضل أن يبقى مجهولا فى تلك الآونة.

واذا نظرنا لأول تشكيل وزارى بعد الثورة سنجد أن الوزراء جميعا كانوا ضمن التشكيلات الوزارية التى توالى فى عهد فاروق. بل إن اللواء محمد نجيب نفسه كان الملك قد اقترح بأن يكون وزيرا للدفاع وذلك فى أواخر حكمه. من هنا يبدو لنا أن تغييرا كبيرا لم

يحدث في مصر. وباستخدام كلمات محمد نجيب نفسه لم تحدث ثورة، فقد قال نجيب: «أود أن أؤكد للجميع أنه لم يحدث انقلاب حاد في أسلوب الحكم في مصر. فكل ما تسعى إليه هو الحفاظ على الدستور كما هو، فنحن لسنا معنيين بتعديله علماً بأن تعديل الدستور يُعد مهمة سياسية هي من محض اختصاص الحكومة. نحن مسئولون فقط عن تطهير القوات المسلحة وليس لنا أن نتدخل أو حتى أن نبدي اقتراحاً فيما يتعلق بالأمور السياسية...».

من الأهمية بمكان أن نلاحظ بعين الاعتبار التطور الذي كان يبدو في الأفق؛ فقد كان من الواضح بدء ظهور انقسام في الاتجاهات والآراء. فبالنسبة لعلى ماهر ونجيب والوزراء فقد شكلوا اتجاهاً واحداً؛ ويمكن القول بأنهم جميعاً كانوا ينتمون لطبقة الحكام التقليديين الذين ظهروا في مصر في ظل الملكية، فعلى ماهر كان أكثر رجال فاروق تمتعاً بثقته، وكان فاروق دائماً يتلقى منه النصيحة والمشورة. ومن المعروف أن الانجليز كانوا يحاولون دائماً الضغط على فاروق لعزل على ماهر وذلك في أيامه الأولى. وإن كان هناك من يدان له بالفضل في تشكيل الاتجاهات الوطنية عند فاروق فهو على ماهر. وهذه المجموعة (على ماهر والوزراء) تؤيد وجهة نظري بأن أول وزارة بعد الثورة لم تكن إلا امتداداً لعهد فاروق. فوجهات النظر فيما يتعلق بالحرب مع إسرائيل، وطرد القوات البريطانية من مصر، والشئون الاقتصادية والسياسية كانت لا تختلف على الإطلاق عما كانت عليه أيام الملك. وعلى الجانب الآخر كان لجمال عبدالناصر وضباط مجلس قيادة الثورة آراء واتجاهات أخرى. إلا أن هذه الاتجاهات لم تشكل نسقاً فكرياً متسقاً فيما بينها، فقد تراوحت هذه الاتجاهات بين الأفكار الماركسية لخالد محيي الدين ويوسف صديق،

■ الفصل الأول ■

والاشتراكية الغامضة وغير الواضحة لدى جمال سالم، والميول الاسلامية لدى عبدالمنعم عبدالرءوف، هذا فضلا عن مجموعة أخرى من الضباط ليس لديهم اتجاه سياسى واضح.

لقد تحقق عبدالناصر - باعتباره العقل المدبر وراء الثورة - أنه إن قُدر لهذا «الانقلاب» أن يستمر فعليه أن ينظم صفوفه ويطرح سياسات جديدة على الرأى العام الذى لم يكن يزل يعيش فى الماضى القريب.

وبالاضافة إلى ذلك فقد كان على عبدالناصر أن يظهر ولاءه للأمريكيين. فالثورة كانت بحاجة إلى التأييد الاقتصادى والسياسى من قوة عظمى مثل أمريكا لاسيما أن الانجليز كانوا لايزالون. داخل البلاد بحكم وجودهم المتميز فى قناة السويس. فى ذات الوقت كان نجيب وعلى ماهر يمثلان الاتجاه القومى المحافظ المناهض للنفوذ الأمريكى هذا فضلا عن عدم ارتباطهما الايديولوجى برجال الثورة. وكانا لايزالان يؤيدان البواعث التى أدت إلى كارثة حريق القاهرة فى شتاء ١٩٥١/١٩٥٢. ومن هنا تيقن عبدالناصر ورجاله أنه اذا استمرت مصر تحركها اتجاهات وأفكار هؤلاء التقليديين فإن الثورة ستفشل دون شك كما سترتد البلاد إلى عهد فاروق البائد. كما رأى عبدالناصر أيضا ورأى معه أصدقاؤه الأمريكيون أن نجيب أصبح يمثل رئيسا صوريا ولكن فى ذات الوقت يمكن أن يقوم من خلاله على ماهر والباشوات القدامى بتنظيم صفوفهم للعودة إلى السلطة فى شكلها القديم. وانتهى الأمر بعد ذلك باتخاذ قرار بعزل اللواء نجيب من رئاسة مجلس قيادة الثورة.

نعود الآن للحديث عن الأميرة فايزة التى كانت قد تكيفت مع واقع الحياة وإيقاعها فى فترة ما بعد فاروق وعلى الرغم من ذلك فالأميرة كانت لاتزال تحتفظ بتأثيرها القوى على الآخرين، فكثيرا ما كان يمتلأ

قصر «الزهرية» (التي كانت تسكن فيه) بالأصدقاء والمريدين. ويقع قصر «الزهرية» بالقرب من نادى الجزيرة الرياضى. وقد كان هذا القصر فيما سبق مقرا للجنرال «ويفل» القائد العام الانجليزى بالقاهرة، وبنهاية الحرب أخذت فايضة هذا القصر بملحقاته وحدائقه. كما قام زوجها «بولنت» بحسه الفنى بتحويل مقر الفيلد مارشال إلى قصر يتناسب ومقام الأميرة؛ وقد فزع الملك فاروق يوما عندما نـمى إلى علمه أن تجهيز هذا القصر تكلف عدة مئات من آلاف الجنيهات. فقد تم استبدال أثاث الجنرال «ويفل» بالعديد من قطع الأثاث الفاخرة التى تم استيرادها خصيصا من أوروبا؛ فامتزج الأثاث بالذوق الانجليزى والفرنسى؛ كما غطت الحوائط اللوحات الأصلية لأعظم فنانى أوروبا من أمثال «فيلاسكينر» و«كورو» هذا فضلا عن مجموعة من لوحات التأثيريين الفرنسيين. أما حجرة الطعام فقد امتلأت بقطع القضة الانجليزية جنبا إلى جنب مع القطع الخديوية. كما غطت الموائد مجموعة من أرقى أنواع المفارش التى يقال أن الخديو اسماعيل كان قد أحضرها خصيصا استعدادا لاستقبال الملكة «أوجينى». لقد فاق قصر الزهرية — عندما سكنته فايضة — أعظم قصور انجلترا. فبالإضافة إلى أثاثه الفاخر أحضرت فايضة طاقما من الخدم النوبيين والسودانيين الذين يتميزون بزيهم الفاخر والمتميز.

أما حدائق القصر فقد امتلأت بالصوبات العديدة التى تتسم بالذوق الفنى؛ كما احتوت الحدائق على مجرى ماء صناعى يتبع من عين ماء صغيرة ويجرى عبر غابة صغيرة. بالإضافة إلى ذلك فقد جمعت فايضة فى حدائقها العديد من الطيور المختلفة والتى جُمعت من كافة بقاع الدنيا مثل الببغاء وطيور الحب و«الككتوه» وغيرها من الطيور العجيبة التى كانت تحدث بأصواتها العذبة جوار رومانسيا

■ الفصل الأول ■

بزراعة العديد من التكيّيات والنباتات الغريبة والنادرة. أما اذا تحدثنا عن «الروف جاردن» الخاص بقصر الزهرية فأبسط ما يقال عنه أنه قطعة فنية جميلة.

كما بنى «بولنت» فى «الروف» حجرة للترفيه كنا نقضى فيها الأمسيات نشاهد فيها أفضل أفلام هوليوود وأوروبا وذلك بعد اغلاق دور السينما لأبوابها. وكثيرا ما يتذكر المرء نشوة ليالى الصيف المقمرة التى كنا نقضيها فى «روف» قصر «الزهرية» ونحن نستمتع لمقطوعات «شوبان» والتى كان يؤديها على البيانو الأمير حسن حسن ابن عم الأميرة فائزة، وقد كان عازفا بارعا يملك مهارة لا يجاريه فيها أحد.

أما «بولنت» زوج فائزة فقد كان رجلا غاية فى اللطف. فقد كان ضخما نضرا، ويتمتع بالطابع الأرستقراطى الرصين الذى يميز نبلاء النمسا. كما كان يعتمد أن يحيط نفسه بطابع الحذقة الادواردية هذا فضلا عن نكاء غامض وجذاب فى ذات الوقت يذكرنا بأوسكار وايلد. فضلا عن ذلك فقد كان يملك عقلا حاذقا جنبا إلى جنب مع درجة عالية من الانسانية. لقد كان بولنت حفيدا لابنة الخديو اسماعيل التى كانت تتمتع بحب والدها وهى الأميرة «فاطيمة» وقد كانت امرأة غاية فى الثراء تركت وراءها ثروة هائلة للحكومة المصرية من بينها قصر كبير هو الآن وزارة الزراعة. وقد كان ابنها (أعمام «بولنت») جمال الدين وجلال الدين صديقين شخصيين لوالدى.

نعود إلى «بولنت» الذى كان فضلا عن طباعه الأوروبية يتصف بذلك العناد العثماني، كما كان يكن تقديرا كبيرا للقرآن. وكان «بولنت» كريما لأقصى درجة فقد كان ينفق ببذخ واسراف شديدين وذلك على النقيض من نسيبه الملك فاروق الذى كان شحيح اليدين إلى حد ما.

بعد قيام الثورة تفرغ «بولنت» لابعاد نفسه وزوجته عن مناخ

■ الأيام الأولى للثورة ■

الثورة؛ كما اهتم بتهريب الكثير من ممتلكاته ومجوهرات فايزة ونقودها، وقد ساعده في هذه المهمة العديد من الأصدقاء من بينهم سفراء وضباط بإدارة الجمارك.

إلا أن فرصة هائلة قد أتاحت لبولنت لتحقيق أهدافه؛ ولم تكن هذه الفرصة إلا تعرف بولنت على واحد من أكثر معاوني عبدالناصر «كارزما» وعاطفية وهو المقدم صلاح سالم والذي سرعان ما اشتهر بعد ذلك بلقب «المقدم الراقص» لقد كان صلاح سالم هو وأخوه جمال سالم من أبرز أعضاء مجلس قيادة الثورة؛ وكانا من أسرة ثرية تملك الكثير من الأراضي والعقارات. وكان صلاح يتسم بالعاطفية والرومانسية وعدم الاستقرار. ومثله مثل العديد من الرجال الذين أتوا إلى قصر الزهرية فقد وقع صلاح في غرام الفاتنة فايزة.

وسرعان ما أدرك «بولنت» أهمية العلاقة بين فايزة وصلاح بالنسبة لخطته. فكان يقوم بتشجيع هذه العلاقة. وسرعان ما أصبح صلاح زائرا يوميا لقصر الزهرية. ففي الصباح كان يحضر اجتماعات مجلس قيادة الثورة، وفي المساء كان يختلط بأفراد عائلات القاهرة الأرستقراطية الذين جاءوا لزيارة سمو الأميرة؛ كما أن حضور صلاح ووجوده في القصر كان يمثل مصدر جذب لهذه العائلات، فقد كانوا يحملون فيه كما لو كان قادما من الفضاء الخارجي؛ وكان مشهدا غريبا أن ترى واحدا من حكام مصر الجدد وهو يختلط بالطبقة الحاكمة القديمة.

وبمعاونة العديد من الأصدقاء تمكن بولنت من تهريب كل مجوهرات فايزة إلى أوروبا، كذلك قام بتهريب لوحات «كورو» وفلاسكينز ولوحات التأثيريين الفرنسيين هذا فضلا عن الملابس والمعاطف الثمينة.

وعندما علم الرئيس عبدالناصر بموضوع قصر الزهرية بدأ ينظر

■ الفصل الاول ■

وعندما علم الرئيس عبدالناصر بموضوع قصر الزهرية بدأ ينظر بعين الشك إلى صلاح سالم. كما شك في أن يكون للأميرة فوزية مآرب سياسية. وهنا دفعته بدايات البارانويا لأن يشك في الناس وابتدأت الشكوك تتزايد لدى عبدالناصر عندما علم أن اللواء محمد نجيب نفسه قام بزيارة لقصر الزهرية وهو أيضا بدوره قد افتتخ بالأميرة. وكان هذا كثيرا على عبدالناصر. كما نشرت الصحف وقتها مقالا يوجه لوما غير مباشر للمقدم صلاح سالم. كما نشرت صورة للأميرة على صفحة كبيرة وكتبت تحتها العبارة «أي رجال الثورة احترسوا من مثل هذه»

ولم يكن من الصعب آنذاك على عبدالناصر أن يقتنع بأن هناك تهديدا لحكمه، فمصر كانت لاتزال ملكية كما كانت شعبية نجيب تثير شكوكه كذلك كان هناك خطر آخر يكمن في على ماهر ووزرائه المحافظين فضلا عن ذلك كله فقد كانت العائلة المالكة بمن فيها من أمراء ونبلاء تملك ثروات وأملاكا كبيرة. ومن هنا بدأ قرار اعلان النظام الجمهورى يتشكل في ذهن الرئيس

إلا أن الاميرة فاييزة كانت قد وجدت طريقها إلى خارج مصر ومعها ممتلكاتها الثمينة وبعد سفرها بثلاثة شهور أعلنت الجمهورية وما صاحبها من قرارات نزع الملكية عن العائلة الملكية. وهكذا تم الاستيلاء على «قصر الزهرية» وبيع ما تبقى بداخله بما في ذلك ملابس «فايزة» في المزاد العلنى ويُعد ذلك مثالا للروح الانتقامية لدى عبدالناصر فيما يتعلق بأولئك الذين يثيرون شكوكه.

● الفصل الثانى ●



شعاع سحر الناصرية

عندما تنازل الملك عن العرش كنت أشغل وقتها رسميا منصب رئيس قسم الاستعلامات الخارجية بالمكتب الصحفى للجامعة العربية. وكان عملى ينحصر بدرجة كبيرة فى كونى حلقة الوصل بين المراسلين الأجانب والسكرتير العام عزام باشا، كما كنت أحد أعضاء المكتب الخاص بالسكرتير العام، وكنت أيضا

■ شكوك حول الناصرية ■

حلقة الوصل المباشرة والشخصية بين الملك فاروق وعزام باشا وذلك بصفة غير رسمية.

لقد كنا نعمل بشكل وثيق مع وزارة الشؤون الخارجية التي كانت علاقتنا بها تقوم على التعاون على كل المستويات

لقد التحقت بسكرتارية الجامعة العربية عام ١٩٤٦ وذلك عندما كانت لاتزال في بدايتها الأولى كهيئة داخل وزارة الشؤون الخارجية.

كانت الجامعة العربية في ذلك الوقت عنصرا فعالا في تشكيل السياسة المصرية الخارجية كان عزام باشا يحلم من خلال الجامعة العربية باعادة تكوين واحياء المملكة العثمانية وقد رأى في ملكية فاروق وسيلة لتحقيق ذلك.

وكان عزام باشا ومن معه يوجهون نشاطهم السياسى - ضمن ما كانوا يوجهونه - نحو بريطانيا، لقد شعر عزام باشا بأن الامبراطورية البريطانية أصبحت في طريقها إلى الانحلال وذلك بعد الحرب المضنية التي اجتازتها، ومن ثم لم يعد لدى بريطانيا الدافع الاقتصادى أو السياسى لأن تجلب لنفسها عبئا آخر وهو زعامة العرب. وكان أنطونى إيدن في ذلك الوقت يحاول جاهدا خلق بدائل عديدة تخدم المصالح البريطانية من الناحية الاقتصادية.

ومن بين هذه البدائل كانت الجامعة العربية التي رأى فيها الانجليز وسيلة لتحقيق مآربهم وقد عبر عن ذلك إيدن عندما أعلن تعاطف بريطانيا مع تأسيس الجامعة. لقد كان الانجليز يرون في الجامعة العربية بداية تكوين كيان عالمى اقليمى يخدم مصالح العرب والانجليز في ذات الوقت. إلا أن «إيدن» لم يكن ليتخيل أن العرب يمكن أن يستخدموا هذا الكيان الجديد ضد المصالح البريطانية وهذا ما حدث بالفعل بعد ذلك، فبعد توقيع بروتوكول تأسيس الجامعة العربية في الاسكندرية في ٧ أكتوبر عام ١٩٤٤ قام فاروق بعزل

■ الفصل الثانى ■

الوزارة الوفدية التى كانت تحظى قبول وتأيد الانجليز. وهكذا أصبح عزام باشا أول سكرتير عام للجامعة التى بدأت توجه اهتمامها ضد مصالح انجلترا.

تميزت المرحلة الأولى من النشاط السياسى داخل الجامعة بمحاولة تكوين أغلبية قوية من الدول تسير فى اتجاه سياسة قومية واصلاحية، وباعتبارها شريكا فى هذه السياسة لم تجد مصر شيئا يمكن عمله فى هذا الشأن أفضل من التحالف مع المملكة العربية السعودية؛ فالتحالف بين القاهرة والرياض يمثل تحالفا بين كيانين عربيين قويين أحدهما وهى مصر تعتبر الدولة الحضرية التى تتمتع بثقل سياسى عالميا واقليميا، والأخرى - وهى السعودية - تعتبر أكبر الدول الرائدة فى انتاج البترول.

فى تلك الآونة انتهت فى الرياض حقبة نفوذ «فيلبى» بما تنطوى عليه من نفوذ انجليزى وحلت محلها حقبة «آرامكو». كما سنحت أيضا فرصة تكوين «لوى» قوى ضد بريطانيا وذلك فى واشنطن. وقدير بالذكر هنا أن المصالح البترولية الخاصة بكل من أمريكا وبريطانيا كانت على طرفى نقيض.

كما زاد من قرب العرب لأمريكا فى ذلك الوقت المعاملات الأمريكية المرنة والتى كانت تترك دائما مساحة للحوار فيما يتعلق بصفقات البترول وذلك على العكس من المعاملات الانجليزية التى كانت تتسم دائما بضيق الأفق.

وتبعاً لذلك كله ضعف النفوذ البريطانى فى تلك المنطقة، وأخذ يحل محله بالتدريج النفوذ الأمريكى. كما ترتب على ذلك أيضا أن اللوى السعودى الذى تكون فى واشنطن والذى كان يحظى بتأييد الكولونيل «ويليام ادى» سفير الولايات المتحدة فى الرياض أصبح فى موقع يمكنه منه أن يساند الجامعة العربية ويقوى من موقفها أمام الحكومة

■ شكوك حول الناصرية ■

الأمريكية. بالإضافة إلى ذلك فإنه يمكن لمصر أن تتلقى المساعدة من السعودية فيما يتعلق بتوسيع الفجوة بين وجهات النظر الأمريكية والانجليزية فيما يتعلق بالمسألة المصرية

هذا كان باختصار وضع السياسة الخارجية في الفترة الأخيرة من حكم فاروق وأود هنا أن أشير إلى بعض الحقائق لكي تكتمل الصورة لدى القارئ؛ فالملك فاروق على الرغم من أنه لم يكن ذا دور فعال فيما يتعلق بالدبلوماسية المصرية إلا أننا يجب أن نشير إلى أنه كان يفتقر تماما إلى الخبرة والكفاءة اللازمة لرسم سياسات معقدة تتطلب معرفة وثيقة بتاريخ المنطقة وسياساتها وأبرز القادة فيها. كما كان يفتقر إلى الخبرة الشخصية التي كان يتميز بها القادة الدوليون. لقد كان فاروق فعلا ليس أكثر من مجرد شريك لعزام باشا وعلى ماهر اللذين كانا - دون شك - هما القادة الفعليون ومخططو السياسة الخارجية. وهنا تبدو المفارقة الغريبة في أن الكثير من الكبوات السياسية كانت تُغرى الملك فاروق بتشكيل متعسف وغير عادل، بينما استمر المسؤولون الحقيقيون عن هذه الكبوات في السلطة بعد تنازله عن العرش.

وهكذا نرى أن العلاقة مع واشنطن كانت تسير في اتجاه ايجابي للغاية قبل الثورة. ويستشعر المرء أن صانع القرار السياسي الأمريكي كانوا على وعى تام بالثقل الحقيقي لمصر؛ كما كان يهتمهم بالدرجة الأولى علاقة مصر الوثيقة بالسعودية، ولذلك ليس من المستغرب أن أمريكا كانت كثيرا ما توجه النقد للسياسة البريطانية في الشرق الأوسط باعتبارها سياسة بالية ومتعسفة.

بعد الثورة وبقاء عزام باشا في منصبه كسكرتير عام للجامعة استمر في تطبيق سياساته الخارجية التي وصفت فيما بعد بأنها سياسات فاروق الخاصة. وقد لوحظ على السياسة الخارجية للنظام

■ الفصل الثاني ■

الجديد أنها كانت تتعجل حل مشكلتي كل من مصر وفلسطين، ونتيجة لهذا التعجل أصبح في الامكان قبول تسويات كانت قد رفضت فيما سبق.

وكننت في تلك الفترة قد تعرفت على المرحوم الدكتور حسن أبو السعود الذي كان يشغل منصب النائب المصري لسكرتير عام الجامعة العربية وكذلك أخوه محمود الذي كان يعمل رئيسا للقسم الاقتصادي للجامعة. وكان الدكتور حسن قد استدعى بعد ذلك للمشاركة في تشكيل وزارة الارشاد القومي والتي عين فيها صلاح سالم وزيرا وكان أكثر المقربين من عبدالناصر. ولم يكن من المستغرب أن أتلقى دعوة بعد ذلك للانضمام إلى هذه الوزارة لأتولى مسئولية قسم الاستعلامات.

والآن وجدت نفسي أمام قرار شخصي صعب. هل أقبل العمل مع هؤلاء الحكام الجدد الذين تأمروا على مليكي واستبعدوه؟ أم على أن أضع اعتباراتي الشخصية جانبا وأتعاون معهم في سبيل الدفع بالسياسة المصرية للأمام. وقد أشركت عزام باشا معي في محاولة ايجاد اجابة لهذا السؤال؛ وهنا قال لي عزام باشا: «يبدو لي هؤلاء الشبان أنهم وطنيون حقا، وقد يسهمون في تحقيق أهدافنا القومية بتأييدهم الشديد الذي كنا نفتقر إليه في آخر أيام الملك، ولذا أرى أن قطع الحوار معهم ومعاداتهم قد يكون قصر نظر منا.. فالاستمرارية والاستقرار هما هدفان لهما الأولوية خصوصا في المجتمعات التي تحدث فيها انقلابات. ولذلك فنصيحتي لك أن تعمل معهم باخلاص حتى يثبت عدم أحقيتهم بعملك معهم.

إلا أن كلام عزام باشا جعلني في مواجهة سؤال آخر. هل يمكن اعتبار هؤلاء الثوريين الجدد جزءا من تيار سياسى مصرى أصيل؟ ومن ثم يستحق الاستمرارية أم أنهم يمثلون ظاهرة غريبة على

■ شكوك حول الناصرية ■

المجتمع وتشذ عن تطوره السياسى الطبيعى. هل يمكن اعتبارهم
عنصرا مقبولا فى التسلسل الأنثربولوجى للحكام المصريين؟
ولغياى أى عمل جاد يتناول أنثروبولوجيا الطبقة الحاكمة
المصرية أقدم لقرائى هنا تناولا تاريخيا مختصرا أحاول فيه توصيف
بنية وشكل واستمرارية النخبة الحاكمة المصرية.

● الفصل الثالث ●



البحث عن أعين الناصر

حاولت شخصيات مصرية بارزة - بما في ذلك الرئيس السادات نفسه - تقديم توصيف للهوية المصرية؛ فتعددت التعريفات وتباينت، إلا أن الاتجاه الذي ساد من بين هذه التعريفات هو ما يمكن أن نسميه «الاتجاه البيرانديلي»^(١) الذي كان يتبناه الرئيس عبدالناصر والذي كان يرى أن المصريين يؤدون دورا

(١) نسبة إلى الكاتب المسرحي الإيطالي «لويجي بيرانديلو» (١٨٦٧ - ١٩٣٦).

بطوليا كبيرا في المنطقة، ومن بين ما قاله في هذا الشأن: «لن أنسى ما حييت قصة للكاتب الإيطالي العظيم «لويجي بيرانديللو» بعنوان «سنة شخصيات تبحث عن مؤلف» تمتلئ حقب التاريخ بأبطال خلقوا لأنفسهم أدوارا بطولية عظيمة أدوها بأكمل وجه على مسرح التاريخ..»
«... تمتلئ حقب التاريخ أيضاً بأدوار عظيمة لم تجد بعد أبطالاً قادرين على أدائها، ولا أدري لماذا يبدو لي أنه يوجد بهذه المنطقة التي نعيش فيها دور ينتظر له بطلا.. وما نحن قد أبدينا تجاوبنا مع هذا الدور»^(١)

المعنى المقصود هنا هو أن مصر في عهدها الناصري الثوري كانت على وشك أن تلعب دورا كبيرا فيما يتعلق بمصير ومستقبل العالم العربي والاسلامى. ومن ثم فقد سادت وانتشرت في ذلك الوقت فكرة أن مصر أصبحت على أعقاب مصير جديد يتسم بالانجازات الجديدة، وذلك بعد أن أصبحت مصر - لأول مرة في تاريخها - منذ الفراعنة تحت زعامة رئيس من أبنائها، وذلك بعد نهاية حكم فاروق وما يمثله من وجود أجنبي. وفي تلك الآونة كتب الدكتور حسين فوزى (وهو أحد المؤرخين المصريين البارزين وقد أصبح فيما بعد رئيسا لجامعة الاسكندرية) كتابه «السندباد المصرى» الذى كان يُعد بمثابة «الكتاب المقدس» للفكر الناصري الجديد. وأقل ما يقال في الأطروحة الأساسية للدكتور فوزى أنها تتسم بالتبسيط الشديد. يعقد الدكتور فوزى مقارنة بين الشعب المصرى والرحالة العربى «سندباد»، ويأخذنا مع هذا الشعب في رحلة طويلة عبر التاريخ ذاق فيها المصريون ألوان الهوان والاحتلال والاستغلال من جانب مجموعات الأجانب المستغلين بداية من جيوش قمبيز مرورا بالممالك وما عُرف عنهم من سلب ونهب، وانتهاء بمحمد على وذريته. هذا فضلا عن الغزوات

(١) «فلسفة الثورة». جمال عبدالناصر.

■ الفصل الثالث ■

الأوروبية كالحملة الفرنسية بقيادة نابليون ثم الاحتلال الانجليزي في نهايات القرن التاسع عشر. ولكن في النهاية كتب لمصر أن تطرد كل هؤلاء المستعمرين والمستغلين وذلك على يد ابنها جمال عبدالناصر الذي يعد أول مصري منذ عهد الفراعنة يحكم مصر. وبمرور السنين تضخمت هذه الفكرة وتم الاضافة إليها والتركيز عليها. كما تمت صياغة ذات الفكرة من خلال عرض مسرحي مبهر (يشبه عرض «الموكب»^(١) الانجليزي) قدمه في أواخر الستينيات رجل مسرح متمكن هو زكي طليمات، وكان اسم العرض «موال من مصر».

يبدأ العرض بحوار بين أبى الهول وشخصية أخرى تمثل الشعب المصري. وتظهر هذه الشخصية الأخيرة في شكل رجل في منتصف العمر يبدو عليه القلق ولكن في ذات الوقت تظهر على وجهه سمات الشجاعة، ويرتدى زي القرويين البسطاء وهو «الجلابية». وقد كان تأثير الصوت والضوء كبيراً على عرض «موال من مصر»، فقد كنا حقاً أمام عرض يتسم بالابهار الشديد. وقد شاهدنا في ذلك العرض أسطورة ايزيس تلك القصة الحاملة والتراجيديا في ذات الوقت ثم تلا ذلك سلسلة من عروض الباليه والموسيقى التي تصور التاريخ المصري. ثم رأينا مشهداً عن الممالك بغياهم واستغلالهم، تلاه رقصة للباشوات بطراييشهم المميزة. أما المشهد الأخير فكان عبارة عن «تابلوه» يظهر هجوم عبدالناصر والجيش على قصر فاروق، وقد امتلأ هذا المشهد عن آخره بالأعلام المرفرفة، وفرق الموسيقى العسكرية وهى تعزف المقطوعات الحماسية كما ظهر أيضاً الجنود والديابات في هذا المشهد.

إن كان هذا كله محركاً للعواطف إلا أنه كان يفتقر إلى الاقناع

(١) عرض كتبه الكاتب المسرحي الانجليزي «نويل كوارد» عام ١٩٣١ وهو عرض يعتمد على الإبهار البصرى.

■ البحث عن أولاد الناس ■

والدقة. لقد كان عبدالناصر في رأيي - بجذوره الكردية - ينتمى هو وزملاؤه من الضباط الأحرار إلى تلك الطبقة التى عُرفت فى المجتمع المصرى بطبقة أولاد الناس، وهى ذات الطبقة التى انتمى إليها الملك السابق فاروق وعائلته والتى انتمت إليها النخبة الحاكمة فى مصر والتى حكمتها على امتداد أربعمئة سنة مضت.

هنا يكمن مغزى الإشارة إلى «بيرانديلو» الذى كان يرسم لنا شخصيات تسعى إلى هوية وهمية، وتقوم بتحويل واقعها الفقير والمجذب إلى شىء بطولى وطموح. يصف لنا شاهد عيان حالة عبدالناصر قبل الثورة بقوله:

«لقد كان عبدالناصر ينتظر - برفقة زملائه الضباط - لحظة اتخاذ خطوات فعلية؛ وكانوا جميعا فى حالة مزاجية خاصة فى تلك الليلة. لقد كان عبدالناصر شغوفا بالموسيقى وكان يستمع وقتها إلى سيمفونية «شهرزاد» لكورساكوف، وكان مسترخيا ويدخن سيجارة يطلق مع دخانها نظرات بعيدة مستغرقة فى ذلك الجو الشرقى المؤثر والخلاب الذى توحى به موسيقى كورساكوف. وكانت الليلة مقمرة ودافئة، إلا أنها ان كانت تعطى انطبعا بالاسترخاء والسكينة فقد كان يتسرب إليها بعض التوتر، لقد كان الجو عموما يساعد على التحليق فى أجواء الحلم وبلورة الأهداف. لقد كان الجو موحيا بالنسبة لشاب على أعتاب اتخاذ قرارات خطيرة لقد كنا جميعا فى حالة تركيز وفى انتظار أوامر القائد». وهنا يتساءل المرء متعجبا هل كان لمحمد على مشاعر شبيهة بذلك ليلة مذبحة القلعة؟ بالطبع لم يكن لديه جهاز تسجيل يمدّه بالحن «قوقازية» لمؤلف موسيقى روسى. لكنه كان على الأرجح فى نفس الحالة المزاجية، وقد تكون هى ذات الحالة المزاجية التى كان فيها محمد الفاتح قبل دخوله استانبول.

لعل ذلك يشير إلى سمة غالبة وغريبة فى الشخصية الشرقية، وهى

■ الفصل الثالث ■

أنها تجمع في نفس الوقت بين الشغف بالشعر والموسيقى جنباً إلى جنب مع الوحشية والغضب العاطفي الثائر. هذه الحالة الذهنية تجدها في الطغاة الذين مع شغفهم بالشعر مثلاً إلا أنهم لا يترددون في القيام بإبادة جماعية. لقد كان «تيمور لنك» «عاشقاً» للزهور وتغريد الطيور؛ وكان هو أيضاً الذى قام بحملة لغزو الصين وهو على مشارف الثمانين، إلا أنه مات في طريقه إلى الصين لحسن حظ اثني عشر مليون صيني. وسبب حملة «تيمور لنك» على الصين أنه كان قد قام بمذابح أدت إلى القضاء على اثني عشر مليون مسلم في حياته، وعندما رأى نهايته تقترب رأى أنه لكى يكفر عن ذنوبه عليه أن يتخلص من عدد مساوٍ من الكفار، وقد كانت الصين في ذلك الوقت هى التى يمكن أن تفى بهذا العدد المطلوب من الجثث!

لقد كانت الثورة المباركة - كما يحب أن يطلق عليها الضباط المصريون - شبيهة إلى حد كبير وغريب بتلك الانقلابات التى شهدتها القاهرة على مر العصور. لم يكن التمرد على فاروق ثورة بالشكل الذى نعرفه عن الثورات الأوروبية المعروفة التى قامت في القرن التاسع عشر. ولكى يتسنى لنا فهم ذلك علينا أن نرجع إلى التاريخ لنفحص بأكثر تدقيق مجتمع القاهرة الذى شهد العديد من أجيال المماليك وعائلاتهم والذين خرجت منهم تلك الطبقة الحاكمة المصرية التى عُرفت بمرور الزمن باسم «أولاد الناس».

يفتقر الشخص المصرى العادى - فى رأى - إلى الفهم الحقيقى للتاريخ، وسبب ذلك أنه فُرض عليه تصورات وتفسيرات وتأويلات متحيزة للتاريخ جعلته فى حيرة من أمره كما لم تجعله يعرف من التاريخ إلا التعميمات الفضفاضة وغير الدقيقة والتى لا تؤدى بأى حال من الأحوال إلى فهمه لنفسه. وأود أن أشير هنا إلى كتاب ظهر فى الآونة الأخيرة ونشرته مؤسسة حكومية، هذا الكتاب يخفى العديد من

الأمر والوثائق التاريخية؛ فضلا عن ذلك فإنه يمكننا القول بأنه لا يوجد عذر لحالة اللاوعى التى أصابت الباحثين والمثقفين الذين من المفروض فيهم أن يضطلعوا بالدراسة الدقيقة للتاريخ المصرى.

تضافرت مجموعة من الظروف والأسباب أدت إلى الوصول إلى هذه الحالة من التشويش فيما يتعلق بدراسة التاريخ بصفة عامة، وفيما يتعلق بدراسة أنثروبولوجيا الطبقة الحاكمة على وجه الخصوص. من بين تلك الظروف ذلك التسلط الشديد الذى ساد تاريخ مصر الحديث والذى حال دون تقديم دراسة أنثروبولوجية كافية للطبقة الحاسمة المصرية. بالإضافة إلى ذلك فإن أولئك الذين يضطلعون بمحاولة تقديم وصف لهوية المصريين المحدثين يفتقرون إلى المعرفة بالوقائع التاريخية الموثقة، بداية من الحكم العثمانى ومرورا بحملة نابليون وانتهاء بالاحتلال الانجليزى وذلك دون تحيز. وقبل ذلك كله لا يمكن أن نتجاهل الاتجاه العاطفى التحزبى الذى سيسود الحياة السياسية المصرية فى الوقت الراهن والذى يقضى على وجهات النظر العقلانية ويخفى الوقائع التاريخية الثابتة.

أعتقد أنه يمكننى القول دون تردد أن افتقارنا إلى دراسة جادة وجامعة عن الطبقة الحاكمة المصرية يجعل فهمنا لمصر وللتاريخ المصرى يشوبه الكثير من عدم الاتساق وعدم الدقة. ويعد هذا الفصل من كتابى اسهاما بسيطا فى ذلك الموضوع. وحيث انى سأطرح فى هذا الفصل وجهة نظرى فى هذا الموضوع؛ وبما أن الكتابة فى مثل هذا الموضوع وابداء رأى فيه يتطلب شخصية ذات تأهيل معين، أجد لزاما على أن أقدم نفسى لقرائى بشكل مقتضب.

من حيث المظهر الخارجى كثيرا ما يُخطئنى الكثيرون ويظنوننى فرنسيا أو تركيا أو انجليزيا، ولكن من يقترب من شخصيتى ويعرفنى المعرفة الصحيحة سيصل إلى نتيجة مؤداها أن شخصا

■ الفصل الثالث ■

مثلى لا يمكن أن تكون نشأته إلا فى القاهرة الفاطمية. وقد نشأت ووجدت نفسى عضواً فى تلك الطبقة من المصريين الذين ألصق بهم اسم «أولاد الناس»؛ وقد تشكلت شخصية هذه الطبقة وميولها وعواطفها وردود أفعالها بكل المؤثرات الإسلامية والحضرية والقومية التى تركت بصماتها على القاهرة بصفة عامة بامتداد أربعمئة سنة يشوبها الاضطراب. ووجودى فى هذه الطبقة سمح لى بالحصول على معلومات تتجاوز ما يمكن أن يحصل عليه الشخص العادى من مصادر المعرفة التقليدية سواء كانت باللغة العربية أو بأى لغة أجنبية أخرى.

من هم «أولاد الناس»؟ لى نحدد ماهية هذه الطبقة يلزم أولاً أن نفحص التركيبية الاجتماعية والسياسية والدينية للمجتمع الإسلامى فى شكله التقليدى.

لا يكتمل فهمنا للتاريخ الإسلامى إلا فى ضوء حقيقة ثابتة وهى عدم سماح الإسلام بتوارث الحكم؛ فالإسلام دين مساواة يستوى الناس أمامه، وبالتالى ليس بالضرورة أن يُورث الحكم لأبناء الملوك ويُنكر على أبناء غيرهم، هذا فضلاً عن أن المجتمع القبلى الذى يرى فى الحكم القوى عاملاً جوهرياً فى استقرار الجماعة يتجاوز النسب والدم بالنسبة للحكام؛ وقد أدى هذا إلى سفك الكثير من الدماء بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فمن بين الخلفاء الراشدين كان أبوبكر الصديق هو الخليفة الوحيد الذى مات ميتة طبيعية، أما كل من عمر وعثمان وعلى فقد قُتلوا جميعاً وذلك على امتداد ثلاثين سنة هى مدة خلافتهم. انقسم المسلمون تبعاً لذلك - وغالباً بسبب قضايا تحزبية - إلى سُنَّة وشيعية، وخوارج. ويشير هذا العنف إلى حقيقة مؤداها أن تداول الخلافة لم تنتظمه عملية منظمة وثابتة؛ على العكس من ذلك كانت القيادة الإسلامية تخضع للتشاور والمفاهيم القبلية

التي نشأت في الصحراء والتي كانت ترى أن قدرة الرجل وامتنلاكه للقوة كانت كافية جدا لأن تجعل منه قائدا بغض النظر عن شخصيته وسلوكه الشخصي.

وغالبا ما يُستند إلى هذا الشكل من السلطة الذي يركز على عامل القوة بالإشارة إلى قصة تولى السلطان العثماني سليم الأول للخلافة. فبعد توليه الخلافة بطريقته الخاصة استشار حكماء امبراطوريته بخصوص شرعية خلافته فأخبروه أنه مادامت القوة هي العامل الأساسي الذي يُعَوَّل عليه فمشكلة الشرعية غير واردة.

والمغزى هنا واضح: القوة لها الأسبقية والأولوية عن الحقوق السياسية، ومن ثم فمن غير المجدي أن يزعم المرء بحقه في الحكم سواء كان ذلك حقا شرعيا أو توارثيا دون أن يخرج هذا الزعم إلى حيز الوجود من خلال القوة. وعلى التقيض من ذلك فإن أى شخص تتوافر له القوة العسكرية الكافية التي تمكنه من الاستيلاء على السلطة فإنه عندما يستولى عليها لن يجد صعوبة في اظهار شرعية حصوله على هذه السلطة. وهكذا نجد أن الفقه الاسلامي — الذي طالما اقتصف بالعملية والبرجماتية — لم يشغل نفسه بالتفكير في نظريات مجردة. ويُعد النظام المملوكي — الذي يمتد أثره إلى الحياة السياسية المعاصرة في القاهرة — نتاجا لهذا النمط من التفكير.

كان المماليك نخبة عسكرية أجنبية انتزعت الحكم من سلطة أيوبية آخذة في الضعف. وحيث أن المبدأ الأساسي الذي كان سائدا آنذاك هو انه لا يمكنك أن تثق في أى شخص وعلى وجه الخصوص أقاربك وأقرانك فإن الولاء الأسرى كان يُنظر إليه بعين الشك. ومن ثم كانت النصحية الدائمة هي استجلاب ممالك من جنسيات مختلفة ليست لديهم أية ارتباطات تعوق ولاءهم الكامل لسيدهم (الذي كان بدوره مملوكا سابقا) دون الاعتماد على أشخاص ذوي أصل ونسب كبير

■ الفصل الثالث ■

وعريق. ومن هنا جاءت تلك القاعدة في النظام المملوكى والتي تقول: «إذا أردت أن تكون شخصا ذا بال في النظام المملوكى فعليك في البداية أن تكون لا شيء» استتبع ذلك وجود مؤسسة حاكمة لا تركز على «الاحتكارية الأسرية» وتشجع هؤلاء الأفراد الذين يبدأون حياتهم كمماليك على التطلع إلى مراكز مرموقة في السلطة.

لقد كان المملوكى العادى يصل إلى القاهرة كمملوك لا يتجاوز سنه التاسعة أو العاشرة؛ وكان يجد نفسه فجأة بعيدا عن أسرته التي تستقر في القوقاز أو إحدى البقاع البعيدة. كانت هذه الصفات - من وجهة نظر النظام - تضمن أن يكون ولاء هذا المملوك و إخلاصه التام لسيده الجديد الذى يدخل بيته على علم منه بأن يوما ما - إذا كانت الظروف مواتية - سيصبح هو نفسه سيذا وحاكما. وبالفعل كانت تربية هذا المملوك الصغير تضع نصب العين أنه ذات يوم سيصبح حاكما.

ومن ثم كان يتعلم كل ما يحتاجه الملوك من قراءة وكتابة وشعر (الذى وإن كان عربيا بالدرجة الأولى إلا أنه كان يتم تشجيع تعلم الفارسية والتركية). كما كان يُطلب منهم إتقان استخدام السلاح والفروسية. لقد كان المماليك يشكلون مجتمعا فروسيا أثرت قوانينه وقواعده بشكل عميق في ظهور ونشوء الفروسية الغربية وذلك عندما تقابلوا مع فرسان أوروبا في معارك «أوترمير»^(١). لقد استهجن المماليك آنذاك استخدام البارود والبنادق والتي كانت في نظرهم «أسلحة تليق بالنساء» ولا تليق بالفروسية الإسلامية النبيلة. وقد أدى بهم ذلك بالطبع إلى الهزيمة في آخر الأمر^(٢).

(١) وذلك في الأرض المقدسة أثناء الحروب الصليبية.

(٢) انظر كتاب «المماليك والبارود» لمؤلفه «آيالون» وعنوانه باللغة الإنجليزية

Ayalon. The Mamelukes & Gunpowder.

■ البحث عن أولاد الناس ■

عند البلوغ يُمنح العبد الصغير حريته، وفرسه وأسلحته التي ينشأ عليها كما يُمنح لقباً عسكرياً أيضاً. ويصبح العبد المملوك من تلك اللحظة فارساً يمنح ولاءه لسيده (الذى مر بنفس العملية هو أيضاً في أيامه الأولى). وحيث أن الشجاعة والفروسية والمهارة في استخدام السلاح كانت قدرات متوقعة من مثل هؤلاء فإنه كان يسمح لهم بالترقى في الدرجات العسكرية كلما تفوقوا في هذه المهارات. وقد ينتهى الأمر بالمملوك في النهاية (وذلك إذا نجح من الحروب والمؤامرات) إلى أن يصبح سلطاناً. وقد حدث ذلك مع السلطان قلاوون، والسلطان «بييرس البندقدارى» الذى هزم المغول، كما حدث مع العديد من سلاطين المماليك.

نأتى الآن إلى نقطة مهمة وهى أن أبناء المماليك لم يكن لهم الحق في توارث ألقاب آبائهم، كما لم يكن بإمكانهم العمل بسهولة في مجال الفروسية. هناك بالطبع بعض الاستثناءات الطفيفة التى تحدث عندما يكون للسلطان المملوكى قوة سياسية هائلة تجعله يفرض ابنه وارثاً له ولعرشه؛ إلا أن هذا لم يكن يحدث على نطاق كبير.

ومن ثم فإن افتقار أبناء المماليك إلى ألقاب النبلاء ومناصب الفرسان، والتقليل من مكانتهم من قبل آبائهم كان يستدعى تعويضهم عن ذلك بهوية أو وضع مما، وهنا ظهر لقب «أولاد الناس»^(١)؛ وقد كان لظهور هذا اللقب مغزاه ودلالته بالنسبة لطبقة أبناء المماليك التى لم تعان طبقة أخرى مثلما عانت من القهر السياسى، ففي مصر المملوكية كانت فرص أبناء البكوات في الترقى والوصول لمناصب كبيرة أقل من فرص العبيد الذين يأتون من جبال القوقاز.

(١) استخدم هذا اللقب في الأصل ليشير إلى أبناء بكوات المماليك وأقرب أقربائهم، ولكنه بمرور الزمن أصبح يشمل درجات قرابة بعيدة مثل أولاد وبنات الأخ والأحفاد، إلخ، ومازال هذا اللقب شائعاً ومستخدماً حتى يومنا هذا. ويشير اللقب اليوم إلى أصل اجتماعى وسلاى متميز.

■ الفصل الثالث ■

إلا أن هذا النظام - مع ذلك - يمكن وصفه بأنه يساعد على إحداث مساواة اجتماعية من نوع ما، وذلك لأن «أولاد الناس» عندما لم يتمكنوا من الانخراط في سلك الفروسية اضطروا للبحث عن أعمال ومهن أخرى بين جموع المصريين ومن ثم التحق بعضهم بالأزهر ليصبحوا معلمين وقضاة ورجال فكر، كما عمل بعضهم كمساعدين لحكام المقاطعات الريفية من المماليك. وفي معظم الأحيان كان أولاد المماليك يتزوجون من طبقات الفلاحين وأثرياء التجار الشيء الذي نتج عنه تكوين رباطات قوية بين المواطنين ظهرت أثناء الاحتلال العثماني، والحملة الفرنسية.

ويجب ملاحظة أنه على الرغم من عدم السماح لطبقة «أولاد الناس» بالانخراط في سلك الفروسية إلا أن ظروف الحرب المتغيرة سمحت لهم بأن يلعبوا دورا عسكريا " فمع تزايد أهمية المدفعية والاستخدامات العديدة للبارود سُمح لأولاد الناس بالعمل في المجال الحربي. وهكذا نجد أن سلاح المدفعية في السنوات الأخيرة للحكم المملوكي كان يتكون أساسا من «أولاد الناس» والعبيد السودانيين وذلك بسبب التأثير المتزايد للبارود الذي بدأ العدو العثماني في استخدامه بشدة.

شيء آخر جدير بالاهتمام أظهره زواج «أولاد الناس» من المصريين وهو قدرة المصريين على تمصير واستيعاب وتمثل الأجناس الأخرى، وهى سمة طالما ميزت هذا البلد. فلم يكن الأمر يحتاج أكثر من جيل أو جيلين لتمثل واستيعاب كل جنس أجنبي داخل عموم المصريين الذين يشكلون هم أيضا خليطا من الأجناس المختلفة.

أصبحت طبقة أولاد الناس من خلال هذا التزاوج الوسيط الذي ربط بين عناصر الطبقة الحاكمة المصرية عند قدوم الحملة الفرنسية. وقد وصف أحد المؤرخين المعاصرين - وهو ب. هـ. هولت - شكل

المجتمع المصرى وبنيتة في ذلك الوقت قائلا: «كانت مصر العثمانية في القرن الثامن عشر تشكل — رغما عن بعض الصراعات الطفيفة — مجتمعا شديد الصلابة تحكمه نخبة عسكرية تعاونها في ذلك وبشكل ضمنى طبقة العلماء، وذلك في وجود طبقات التجار والصناع الذين يقومون على مصالح المجتمع وامتيازاته من خلال الطوائف الحرفية، ومن خلال علاقاتهم مع النخبة العسكرية...»^(١).

وهكذا منذ بداية الحكم المملوكى، وخصوصا في الفترة التي أعقبت الاحتلال العثماني عام ١٥١٦ أخذت طبقة «أولاد الناس» تتزايد كما أصبحت بمرور الزمن تصطبغ بالصبغة المصرية. وكان عدد صغار الممالك الذين يتم جلبهم كل عام يقارب الألفين، وهو عدد قابل للزيادة في أوقات الرخاء والحرب، ويقل هذا العدد في حالة الكساد الاقتصادي. كما كانت عملية التزاوج بين «أولاد الناس» (ذكورا كانوا أم اناثا) والمصريين في ازدياد، فقد كان أثرياء المصريين وكبرائهم يقبلون على الزواج من الفتيات الشركسيات اللاتي كن يتميزن بجمال شديد، هذا فضلا عن أن أمراء الممالك كانوا يفضلون الزواج من التجار الأثرياء في القاهرة لما في ذلك من امتيازات اقتصادية وسياسية. ونتج عن ذلك وجود ترابط بين أبناء الأمراء والبكوات والمصريين^(٢).

يمكننا التمييز بين خمسة عناصر كانت تكون النخبة المصرية أثناء الحكم العثماني؛ وهذه العناصر هي كالتالي:

(١) انظر كتاب: P.M. Halt. Egypt and the Fertile Crescent, 1516 - 1922, Langmans, 1966, PP. 160, 161

(٢) لقد اختفت في ذلك الوقت أية ميول أو نزعات عنصرية على عكس ما حدث أيام الحكم العثماني.

١ — أمراء الممالك والبيوتات وبيوتهم:

كان لكل أمير و«بك» مملوكي «بيت» يحمل اسمه وينتسب إليه كل أفراد أسرته، كما ينتسب إليه كل من في البيت من طهارة وعبيد وإماء. وكان «البيت» بالنسبة للممالك الرابطة التي تجمع بين كل من ينتسبون إليه، كما كان لزاما على من كان في هذا البيت أن يظهر ولاءه وإخلاصه التام له. وقد استمر هذا التقليد حتى بضعة سنوات قليلة مضت، وكاتب هذا الكتاب مازال يتذكر مظاهر المعيشة في مثل هذه البيوت القاهرية. وكان الانتساب للبيت والارتباط به لا يقتصر فقط على أسرة المملوك (كما أشرنا) ولكنه يمتد ليشمل العلاقات التي أقامها الممالك مع عموم المصريين بما فيها من علاقات قريبة أو بعيدة نتجت عن عدة قرون من التزاوج والارتباط بمصالح ومظاهر نشاط مشتركة.

وكان لكل بيت من بيوت القاهرة جذوره التي تسمى «حلقات». وكان عموم المصريين أحيانا كثيرا ما ينضمون إلى النزاعات والصراعات التي تنشب بين بيوت الممالك، فيتشيع كل منهم إلى بيت من البيوت بشكل مباشر أو غير مباشر. وكان انتصار أحد البيوت على غيره يتبعه الحصول على الامتيازات والمناصب العليا بالنسبة للفريق المنتصر. وأرى أن مثل هذه التحيزات القائمة على الحماية والمصالح تظهر بشكل أو بآخر في الأحزاب السياسية المصرية في الوقت الحاضر. ولعل ما نعرفه اليوم باسم «الواسطة» هو بقايا تلك التحيزات القديمة والتي كانت تقوم على المصالح والحصول على الامتيازات.

نأتى الآن إلى العنصر الثانى فى هذه النخبة ذات السلطة، وعلى طبقة علماء الأزهر.

لا يمكن لأى حكم اسلامى أن يؤدى مهامه دون تأييد القضاء ورجالہ ورجال الفقہ. ويخضع القضاء والفقہ الاسلامى للشریعة، كما يتميز القضاء الاسلامى ببراجماتيته وقوته وتأثيره. وعلى الرغم من افتقار الفقہ الاسلامى لقانون خاص بتداول الحكم (حتى أنه ينصح المسلم دائماً بأن يكون خاضعاً للحكم الحالى) إلا أنه يعد مفصلاً وواضحاً فيما يتعلق بأمور أخرى. وقد ظهر خلال التاريخ المملوكى وفى المرحلة المبكرة من الحكم العثمانى العديد من الشخصيات البارزة والشيوخ والقضاة والعلماء، وكذلك أيضاً على وجه الخصوص القادة الصوفيون. وتشير العديد من الدلائل التاريخية إلى ظهور طبقة أولاد الناس ضمن هذه الفئة، فالكثير من أبناء أمراء المماليك انخرط فى الصوفية. ويشير كل من «الشعرانى» و«ابن عماد» إلى أمثلة لذلك؛ فأحد أولاد الناس الشراكسة ويدعى شاهين ابن عبد الله الشركسى اتبع المذهب الصوفى المعروف بالخلواتى، وعاش نحو ٤٥ عاماً من التقشف والزهد فى تلال المقطم، حتى أنه أصبح بعد ذلك أحد أهم المؤسسين للطائفة المصرية من نظام الخلواتى.

لسنا فى حاجة إلى الإشارة إلى أهمية الشريعة بالنسبة للمماليك، فقد كان كل نظامهم مرتكزاً عليها؛ وكان جزءاً مهماً من تعليم فرسان المماليك الشباب هو تطبيق فروع الشريعة فيما يتعلق بالحرب، ومبرراتها. تبرر الحرب بأنها دفاعاً عن النفس، ودفاعاً ضد الظلم والاضطهاد، ودفاعاً عن الوطن والمسكن، وعن الحرية القومية. وتتمثل هذه الحرية القومية فى حرية العبادة، وهى من أهم أنواع الحريات، ويحرم القرآن الحروب العدائية العدوانية التى ترمى إلى أهداف مادية. كما كان المماليك يتبعون قاعدة شرعية تستند إلى ما

■ الفصل الثالث ■

جاء في القرآن: «وإذا جنحوا إلى السلم فاجنح له وتوكل على الله».

ويعنى هذا أن العدو إذا طلب الهدنة فإنها يجب أن تُمنح له.

لقد تطورت القواعد والتشريعات الخاصة بالحرب لتأخذ شكل المبادئ الملزمة التي يحتذيها المسلم في المعركة، والتي تحكم سلوكه تجاه عدوه. ولعل الصراع بين المسلمين والجيوش الأوروبية أثناء الحروب الصليبية أسفرت عن تأثر المؤسسة الحربية الأوروبية بهذه المبادئ؛ ولعلنا هنا لسنا في حاجة إلى الكلام عن الاتجاهات النبيلة والسلوك الانساني الذي أظهره السلطان صلاح الدين ورجاله تجاه ريتشارد قلب الأسد والصليبيين عموماً.

لقد كان بكوات الممالك فرسانا بكل ما في الكلمة من معنى. ويبدو للمرء أن المبادئ التي كانت تحكم فرسان الملك آرثر قد تكون قد استلهمت من مبادئ الممالك المصريين. تتجلى لنا مبادئ الممالك المثالية في حديث آخر سلطان مملوكى مصرى وهو (طومان باى) والذي كان يخاطب فيه السلطان العثماني سليم الأول. ولعلمه المسبق بأنه سيموت شنقا على باب زويلة أفضى طومان باى بكل ما لديه إلى سليم الأول فأخبره بأنه هزمه معتمدا على مجموعة رعاع من الايطاليين واليونانيين الذين استخدموا بدورهم أساليب حربية لا تتصف بالنبلية مثل البارود و«أسلحة النساء» واستغلوا نبلية الفرسان المصريين. كما خاطب أحد الفرسان المصريين سليم الأول قائلا: «كيف سمحت لنفسك بأن تطلق النار على مسلمين؟ ماذا ستفعل عندما تجد نفسك في حضرة الله، وماذا سيكون جوابك؟ إن كل ملك - مهما كانت عظمتة - ما هو إلا عبد لله. إنما أنت وأنا لسنا أكثر من عبيد».

وفي نفس الموقف أخذ أمير آخر يدعى «قورباى» يكيل اللوم لسليم الأول قائلا: «استمع إلى كلماتي وانصت إليها. إن فارسا واحدا منا

■ البحث عن أولاد الناس ■

يمكنه أن يهزم جيشك بأكمله. إن كنت لا تصدق ذلك فعليك بالمحاولة؛ فقط أمرك أن تتخلى عن هذه الأسلحة، واحتفظ بمواقعك وليأخذ جيشك وضع الحرب؛ وسيقاتلك منا ثلاثة فرسان فقط أنا عبدالله والسلطان طومان باى والأمير «علان»، وسترى بعينيك ما يمكن أن نفعله. وستعرف حينئذ إن كنت تستحق أن تكون ملكاً أم لا».

وكما ذكرنا سابقاً فقد شغل علماء الشريعة الإسلامية والفقهاء الإسلامى وفلاسفة الصوفية مكانة بارزة إذ كانوا يمثلون عنصراً أساسياً فى بنية النظام المملوكى، هذا فضلاً عن أن هذه المناصب كانت تجذب «أولاد الناس» الذين كانوا يميلون إلى العلم والتفقه. وكان العلماء يتمتعون بالقوة والمهابة داخل النظام المملوكى لما كانوا يتمتعون به من علاقات نسب قوية مع بيوت البكوات، كما أن الدور الذى كانوا يلعبونه كقضاة شرعيين ومفسرين للقرآن جعل سلاطين الممالك فى حاجة دائمة إلى التأييد الشرعى منهم. وفى القصة التالية التى يخبرنا بها الجبرتى نجد مثالا على قوة ومهابة هؤلاء.

حدث ذات مرة خلاف كبير بين أمير مملوكى فظ يدعى يوسف بك الكبير والشيخ على السعيدى العدوى فيما يتعلق بموضوع طلاق؛ وعلى أثر هذا الخلاف هدد يوسف بك الشيخ العدوى. بتحطيم رأسه، فكان قول الشيخ رداً على هذا التهديد: «ليلعنك الله، وليلعن تاجر العبيد الذى أحضرنا هنا، ولينزل بلعناته على من باعك واشترك». وعندما اجتمع الأمراء لحل هذا الخلاف^(١) أقرروا جميعاً أن آراء الشيخ فيما يتعلق بموضوع الطلاق هى الآراء الصائبة. نأتى الآن إلى العنصر الثالث من عناصر النخبة المصرية فى ذلك الوقت.

(١) الجبرتى: سنة ١١٨٠ - الكتاب الثالث - تأبين الأمير يوسف بك الكبير.

٢ — النقابات والطوائف الحرفية:

كانت النقابات والطوائف الحرفية من أكثر مؤسسات الدولة المملوكية التي ظهرت فيها الديمقراطية الإسلامية بأكثر وضوح، وعلى وجه الخصوص في القاهرة. ولم تكن النقابات مقصورة على التجار والحرفيين، ولكن كانت هناك نقابات لكل عضو في المجتمع، فكانت هناك نقابات للطلبة والمعلمين، والخدم، والسقاين، وأيضا نقابات للصوص والنشالين والعاهرات. ومن خلال تلك النقابات أمكن لجميع المواطنين أن يجدوا القناة التي يعبرون من خلالها عن آرائهم الاجتماعية والسياسية الأمر الذي جعل لهذه النقابات اتجاهاتها المحددة والواضحة داخل النظام الاجتماعي^(١).

ولم يكن للحكام أن يتدخلوا في شئون هذه النقابات والطوائف، والتي كانوا يحترمون استقلاليتها. ومن خلال الزواج دخلت عناصر من أولاد الناس إلى النقابات فأصبحت هناك علاقات قرابة قوية بين أعضاء النقابات وبيوت الممالك الأمر الذي أهل النقابات لأن تلعب دورا سياسيا أثناء الصراعات بين بيوت الممالك والتي كانت سمة ملازمة لمدينة القاهرة.

وكان على رأس كل نقابة شيخ يتولى رئاسة ديوانها أو اللجنة العليا بها. وكان هذا الشيخ في العادة شخصية قوية تحوز احترام الحاكم المملوكي. يوضح الجبرتي ذلك بروايته للعديد من الأحداث التي تظهر قوة النقابات حتى نقابات وطوائف الشحاذين، فيروي الجبرتي عن الأمير ابراهيم بك أبو شنب أنه كان معروفا عنه الانفاق في أعمال الخير والعطف على الشحاذين. وفي عام ١٠٩٩ تولى ابراهيم بك

(١) انظر كتاب «جيبس وباون» «المجتمع الإسلامي والغرب» - المجلد الأول - الجزء الأول ص ٢٧٧ وعنوانه الأصلي بالانجليزية:

Gibb & Bawen, Islamic Society and the West, Vol. i Par 1.

امارة الحج أى أنه كان مسئولاً عن توصيل الحجاج إلى مكة. وعند رحيله عن القاهرة اصطحبه حتى أبواب المدينة طائفة شحاذى القاهرة كلها وعلى رأسها شيخها الذى أعد لابراهيم بك حفل وداع كبير. وعند عودته من مكة كانت الطائفة كلها فى انتظاره، وكانوا قد جمعوا من بعضهم نحو ٢٢ ألف بارة ليقدموها هدية لابراهيم بك وذلك مع حصان رمادى غالى الثمن تغطيه ألجمة عديدة من الجلد والفضة. وعلى أثر ذلك دعا ابراهيم بك كل شحاذى القاهرة إلى حفل كبير استمتع فيه الجميع. تذكرنى هذه القصة بحادثة أخرى وقعت أثناء زيارة الرئيس نيكسون لمصر عام ١٩٧٤. كان أحد الباشوات المصريين ذوى النفوذ قد سُرقت محفظته، وكانت تحتوى على جواز السفر، ورخصة القيادة، والبطاقة الشخصية فالتجأ هذا الصديق إلى قريب له، وهو ضابط شرطة ذو رتبة كبيرة، فقال له ضابط الشرطة: «يمكن أن تستعيد أوراقك ومستنداتك ولكنك ستفقد النقود. ولكنى سأفعل ما بوسعى» وبعد ذلك بيوم اتصل ضابط الشرطة وقال: «أخشى أننا سنتأخر قليلاً فى إعادة أوراقك ذلك أن زيارة الرئيس نيكسون تستنفد كل طاقاتنا وعلينا بدفع النشالين إلى الاسكندرية حتى يشاركوا قوات الأمن فى تأمين الزيارة. وحال عودة النشالين إلى القاهرة ستعود إليك محفظتك فى الحال».

هاتان القستان لهما مغزاهما. فابراهيم بك أبو شنب فضلاً عن اهتمامه بالأعمال الخيرية إلا أنه كان رجل سياسة حاذق. وكان عضواً فى بيت مملوكى قوى وهو بيت «قاسم»، وكان هذا البيت فى صراع مريع مع بيت مملوكى آخر هو بيت «ذوالفقار». وهذا الصراع جعل لطائفة الشحاذين (التي كانت فى صف ابراهيم بك) أهمية كبيرة وذلك بسبب قدرتها على جمع المعلومات والتجسس. أما فى حالة زيارة الرئيس نيكسون فإن النشالين لعبوا دوراً كبيراً وذلك لقدرتهم

■ الفصل الثالث ■

على اكتشاف أى أسلحة يمكن أن يخفيها أى شخص وتشكل خطرا
على حياة الرئيس نيكسون!
نأتى الآن إلى العنصر الرابع وهم جباة الضرائب.

— الملتمزمون :

الملتمزم هو جاب للضرائب يتبع الدولة وفي الوقت نفسه يشارك
المزارع في ادارة الأرض؛ وللملتمزم عدد من القرارات تتناسب ونصيب
الدولة من قطعة أرض يعمل فيها فلاح^(١)

وبهذا الشكل كان جابى الضرائب أو الملتمزم يلعب دورا مهما في
البنية الاقتصادية للبلد، فان عليه أن يفى بنصيب الدولة من دخل
الأرض وان اضطر إلى زيادة الضرائب والأعباء التى ينوء بها كاهل
الفلاح^(٢) علاوة على ذلك فإن المناخ السائد في العصر المملوكى والذي
كان يتسم بوجود العصبية والتحزبات والتجمعات المتناحرة أرغم
جابى الضرائب على محاولة كسب تأييد وتعاطف الفلاح، وهى حقيقة
يغفلها الكثير من المؤرخين — خصوصا الغربيون منهم — الذين
يبالغون في اظهار الجوانب السلبية^(٣) دون أن يعطوا الجوانب
الإيجابية حقها. وخلال العصر العثمانى اكتسب الفلاح امتيازات أكبر
فأصبح بإمكانه أن يملك الأرض ويورثها لأبنائه بعد أن كان ذلك من
حق الملتمزم. أدى هذا بمرور الوقت إلى ظهور طبقة من أثرياء
الفلاحين. وكان من الطبيعى أن يحدث تزاوج بين هذه الطبقة
والطبقات الأخرى الأمر الذى أسفر — بمرور الوقت — عن ايجاد
روابط وعلاقات قرابة بين طبقة أولاد الناس والفلاحين^(٤).

- (١) الجبرتي: المجلد الرابع — انظر كذلك كتاب «جيبس وباون» المجلد الأول — الجزء
الأول ص ٢٦١. (٢) الجبرتي: المجلد الثانى.
(٣) انظر كتاب «جيبس وباون» المشار إليه سابقا وذلك في المجلد الأول — الجزء
الأول ص ٢٦٩.
(٤) انظر كتاب «جيبس وباون» المجلد الأول — الجزء الأول ص ٢٦٠.

كان الملتزم ذا أصول ترجع غالباً إلى طبقة أولاد الناس؛ وظهرت هذه العلاقة بين الملتزم وأولاد الناس أكثر وضوحاً في الحقبة المملوكية الأخيرة وأثناء الحكم العثماني. وكان الملتزم يمثل جزءاً من نظام يتدرج من البكوات العثماني ثم المماليك ثم الملتزمين ثم الصرافين (وهم المشرفون الحاليون وعادة ما يكونون من الأقباط) ثم أخيراً الفلاحون. وقد كان الملتزمون يمثلون بدرجة ما طبقة أرستقراطية تعتمد في مواردها على إنتاج الفلاحين المأجورين. لكن علينا أن نلاحظ في هذا السياق أنه بجانب طبقة الملتزمين (الذين لم يكونوا مالكين للأرض) برزت طبقة أخرى مستقلة من مُلاك فعليين.

■ القبائل العربية في مصر:

استقرت القبائل العربية في مناطق شاسعة من الأراضي المصرية، وبمرور الوقت اختلطت هذه القبائل بجماعات الفلاحين واكتسبت ما يمكن أن نسميه النمط المصري في الحياة والسلوك. وقد لعبت هذه القبائل إبان العصر المملوكي وكذلك أثناء فترة الحكم العثماني دوراً سياسياً بارزاً وذلك في اتجاهين: أولاً كان دورهم السياسي واضحاً في الصراعات الدائرة بين بيوت المماليك والعصبيات المختلفة، ثانياً: كان لهم دور بارز في مواجهة الغزاة الأجانب خصوصاً الأتراك، فقد كانت قبائل البدو في مقدمة المواجهة ضد الصليبيين، كما كانوا يساندون المماليك في مقاومتهم للعثمانيين.

لقد حرصت بيوت المماليك في القاهرة على إيجاد علاقات مع قيادات القبائل العربية، وذلك لأن شيوخ هذه القبائل كانوا يتمتعون بالنفوذ؛ هذا فضلاً عن علاقاتهم القوية بالطرق الصوفية التي كان لها هي الأخرى دور بارز في تأييد البيوت المملوكية. ومثل هذا التعاون وهذه العلاقة بين السلطة الحاكمة والطرق الصوفية نجد لها مثلاً في العلاقة بين السلطة في المملكة العربية السعودية والحركة

■ الفصل الثالث ■

الوهابية. وكان عدد القبائل العربية التي استقرت في مصر إبان العصر المملوكى لا يقل عن ثلاثين قبيلة من أشهرها العبابدة والهواره والهنادى والبدارى وهى قبائل تقطن مصر العليا، وفى الدلتا كانت توجد قبائل الطرابين والقطارى وبنى واصل. هذا بالإضافة إلى بعض القبائل الليبية التي استقرت فى مناطق معينة بالدلتا وأصبحت بعد ذلك تشكل عنصرا أساسيا فى محافظة البحيرة مثل أحاد على والقذافية. وكانت هذه القبائل على علاقات وثيقة بالطرق الصوفية مثل الرفاعية والبداية، وغيرها.

● الفصل الرابع ●



الاشتات مع العنكيات الستة

يقدم هذا الفصل تحليلا جديدا من منظور مصرى للظروف والملابسات التى أحاطت بالعلاقات المصرية الأمريكية، والعوامل التى أدت إلى حرب ١٩٥٦ وعواقبها.

كما أشرنا سابقا كان هناك دور أمريكى لا يمكن اغفاله فى عملية استبعاد فاروق فى ذلك الوقت كان

■ عبيد الناصر والذين غدوا به ■ ٥٧ ■

لعبد الناصر علاقة وثيقة بكرميت روزفلت، وكان لهذه العلاقة أثرها البالغ إذ حال الأمريكيون دون أى تدخل من جانب بريطانيا لصالح الملك. إلا أن دور أمريكا في مساندة عبد الناصر مازال محاطا بالسرية إلى الآن، وذلك بغض النظر عن كتابات بعض عملاء جهاز المخابرات الأمريكى السابقين مثل «مايلز كوبلاند» الذى كان له دور مهم في هذه الفترة.

يرجع الغموض الذى كان يكتنف العلاقات بين أمريكا ومصر إلى وجود تناقض في الأهداف، فبينما كان الهدف الرئيسى للأمريكيين هو تأييد اسرائيل كانت الغالبية الكاسحة من المصريين والعرب تحلم بانتصار العرب على الدولة الصهيونية.

ومن هنا كان كل من الجانبين (عبد الناصر وأمريكا) تعترضهما عقبات في سبيل تكوين علاقة واضحة وصريحة؛ وذلك لأن الأمريكيين كانوا مضطرين لارضاء لوبى صهيونى قوى داخل الولايات المتحدة بينما كان على عبد الناصر أن يواجه رأى عام مصرى وقوى أيضا ضد اسرائيل. وبالفعل كان عبد الناصر كثيرا ما يتهم من قبل خصومه بأنه أصبح أداة تستخدمها أمريكا لتهدة الصراع مع اسرائيل، على النقيض من ذلك كان فاروق معارضا لأية عملية استغلال سياسى غربى ومن ثم أصبح ضحية للنفوذ الغربى الذى مارس معه عمليات اغتيال الشخصية. لقد كان الملك وطنيا بكل ما في هذه الكلمة من معنى وذلك في مواقفه من تعديت القوة العظمى في الشرق الأوسط ومن الوجود الدائم لاسرائيل في المنطقة. أما سياسة عبد الناصر فكان من الواضح أنها تنطوى على التعاون بل والخضوع التام لرؤى القوى العظمى الغربية. لقد كان لعبد الناصر علاقات وثيقة ومتعددة مع العديد من عملاء وكالة المخابرات المركزية الذين استقروا وعملوا في القاهرة؛ و في هذا السياق أشير إلى «مايلز كوبلاند» الذى ألقى كتاباته

■ الفصل الرابع ■

الكثير من الضوء على تعاون أمريكا مع الثورة المصرية. حيث قدم «مايلز» في كتاباته معلومات لا يمكن لغيره أن يقدمه^(١)

لقد اتسمت السياسة الناصرية عام ١٩٥٣ بتهدئة الصراع مع إسرائيل وذلك بشكل مستتر، ومثالنا الواضح على ذلك هو الطلب الذى قدمه ممثل مصر فى الأمم المتحدة للدكتور «رالف بانش» وذلك للتوسط لدى «مستر شاريت»^(٢). كل ذلك بالإضافة إلى أنشطة أخرى للقيادة الناصرية أدت إلى أحداث شقاق داخل صفوف رجال الثورة. وصل ذلك الشقاق إلى ذروته عام ١٩٥٤ الأمر الذى دفع عبدالناصر بناء على نصيحة من وكالة المخابرات المركزية إلى محاولة استبعاد اللواء نجيب من منصبه كرئيس للجمهورية.

لقد كان نجيب وطنيا مخلصا وكان صدى للاتجاهات الوطنية التى سادت إبان حكم فاروق. وكان نجيب مناهضا لسياسة تهدئة الصراع مع إسرائيل كما كان مخلصا أيضا للقضية الفلسطينية، وفيما يختص بصراع مصر مع بريطانيا كان نجيب مؤيدا لوجهة النظر التى

(١) انظر كتاب «مايلز كوبلاند» وعنوانه «لعبة الأمم» وعنوانه باللغة الإنجليزية:

Miles Copeland, The Game of Nations, Weideufeld and Nicolson, London 1969.
انظر ايضا كتابه: The Game Plouer, awrum pten ltd, London 1989.

(٢) فى عدد أكتوبر نوفمبر ١٩٩٠ من دورية بعنوان «المخابرات والأمن القومى» كتب ضابط إسرائيل مقالا تحت عنوان «اتصالات اسرائيلية مصرية» وقال فيه: «ما بين عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٦ تم ما يقرب من اثنى عشرة محاولة للوساطة والاتصال المباشر منها ما هو معروف ومنها ما لم يتم الكشف عنه، وكان الهدف من هذه الاتصالات هو بحث احتمال عقد مباحثات تهدف إلى استقرار الأوضاع؛ ومن بين تلك الاتصالات ما قام به رئيس وزراء إسرائيل ووزير خارجيتها بعد ذلك «موشى شاريت» وذلك من خلال وساطة شمويل ديفون، وجدعون رافايل، والملحق الصحفى المصرى فى باريس عبدالرحمن صديق، واتصالات أخرى تمت من خلال شخصيات مثل «موريس أورباش» عضو البرلمان الانجليزى والأمريكيين «المور جاكسون» و«روبرت أندرسون».

كان يعبر عنها شعار: «لا محادثات دون جلاء». ويعنى ذلك أن مسألة جلاء بريطانيا عن مصر لم تكن موضع محادثات أو حوار بل كان يجب التسليم بها قبل أى نقاش أو حوار. لقد كان هذا هو التوجه المصرى الطبيعى إزاء مسألة انسحاب القوات البريطانية عن مصر. وقد تأثر نجيب فيما يختص باتجاهاته الوطنية بعلى ماهر باشا. لم يكن على ماهر ممن تبنوا الاتجاهات الوطنية فقط. ولكنه كان أحد أبرز من قاموا بتشكيل هذه الاتجاهات.

نتيجة لهذا كله كادت شعبية عبدالناصر. تتعرض للاهتزاز. فقد كان الجيش على وجه الخصوص ينظر للعلاقات مع أمريكا واسرائيل بنوع من الحساسية. وعلى الرغم من أن مجموعة الضباط الأحرار كانت تضم رجالا ذوى قناعات وآراء سياسية متباينة إلا أنهم كانوا جميعا معارضين لعلاقة عبدالناصر بأمريكا. ومن بين هؤلاء وأبرزهم كان خالد محيى الدين الذى كانت اتجاهاته تميل نحو الاشتراكية. لقد انحدر معظم الضباط الأحرار من الطبقة البرجوازية الوسطى، وكانت اتجاهاتهم السياسية تقليدية تأثرت بشكل كبير بالاتجاهات السياسية التى كانت سائدة فى فترة حكم فاروق. ويمكن القول بأنه كانت لديهم اتجاهات وطنية كما كانوا مؤيدين للقضية الفلسطينية وإن لم يتكون لديهم بعد التزام عربى واضح، وهو الشئ الذى حدث بعد انشاء الجامعة العربية.

أما المواجهة التى حدثت بين عبدالناصر ونجيب عام ١٩٥٣ فقد كان دائما ما يشار إليها بأنها تعارض بين مصلح شاب (عبدالناصر) ومعه مجموعة من الضباط المثاليين فى مواجهة شخص رجعى ضعيف هو نجيب الذى تأثر بعناصر تبغى الرجوع إلى الحكم الملكى، وأثار هذا الصراع قضية مهمة فى ذلك الوقت وهى ما اذا كانت الديمقراطية تناسب اللحظة التاريخية آنذاك أم أن الديكتاتورية

العسكرية هي الأنسب لصالح البلد.

ويحضرني هنا مؤرخ سويسرى أرخ لعبدالناصر هو جورج فوشى^(١).

وفى تناول «فوشى» لأزمة نجيب اتبع نفس الاتجاه البسيط المشار إليه سابقا، فلم ير فى تلك الأزمة شيئا أكبر من مجرد صراع بين قوى التقدمية وقوى الرجعية، وهو تبسيط يقترب كثيرا من فكرة الصراع الأبدى بين الخير والشر.

إلا أننا على الرغم من هذه المواقف من قبل القيادة الناصرية لا يمكننا أن ننكر أهمية الجبهة الوطنية التى كانت تتبنى موقف الجلاء غير المشروط عن مصر، والتى كانت موالية للقضية الفلسطينية. وهنا علينا أن نلاحظ أن موقف نجيب الراسخ تجاه عمليات تهدئة الصراع مع إسرائيل بناء على اقتراحات الأمريكين، فضلا عن موقفه تجاه عمليات التسوية مع بريطانيا بشأن قناة السويس كان يعضده تأييد جماهيرى كبير.

بناء على ماسبق لا توجد صعوبة فى تصور أسباب استبعاد نجيب. فقد كان اللواء نجيب سببا مباشرا فى ايجاد اتجاه معارض قوى تجاه النفوذ الأمريكى وتأثيراته. كما كان من الممكن لشعبية نجيب القوية أن تحول دون تطبيق السياسات التى تم الاتفاق عليها بين عبدالناصر وروزفلت فى أثناء الشهور السابقة على قيام الثورة. لكل هذا كان يجب التخلص من نجيب. لقد كان ولاء عبدالناصر لأصدقائه من وكالة المخابرات المركزية أكثر من ولائه للقضية

(١) انظر كتاب «جورج فوشى» الصادر فى باريس بعنوان:

Georges Vaucher, Gamla Abd elNasser at son
eqibe, Julhiard paris, 1959 Val. 2 pp.133 to
138.

■ العلاقات مع الولايات المتحدة ■

الوطنية، وهو الشيء الذي حال دون تفهمه واستيعابه للمشاعر الوطنية التي كانت سائدة في ذلك الوقت. على الرغم من كل ذلك فإن العلاقات مع أمريكا بعد أزمة نجيب بدأت تفتت وتضعف، الأمر الذي كان يخدم مصالح الاتحاد السوفيتي.

الجزء الثاني

بداية الأزمة

● الفصل الخامس ●



الشهرة المنة وانتجان نجيب

يمكن اجمال الأحداث التي تمت في اطار المواجهة بين نجيب وعبدالناصر فيما يلي.

قبل عزل نجيب بفترة قصيرة وصل إلى القاهرة بشكل سرى ممثل خاص لايزنهاور وذلك لمراقبة هذه المواجهة بين نجيب وعبدالناصر. وكان من حظى أن قابلت هذا المراقب الأمريكى فى فندق سميراميس وكان

■ عبد الناصر والذين غدروا به ■ ٦٥ ■

■ الثورة المضادة واستبعاد نجيب ■

يصحبه سمير سوكتي الذى كان يعمل آنذاك مراسلا «اليونيتد برس» فى القاهرة وكان فى ذات الوقت على علاقة بوكالة المخابرات المركزية. وعندما قابلتهما قال سمير «لقد أرسل الرئيس الأمريكى الكولونيل «X» ليعمل مراقبا.. فقلت: «وماذا سيراقب؟» رد سمير: «ستعرف ذلك حالا».

فى الثانى والعشرين من فبراير عام ١٩٥٤ طالب عبدالناصر (وأيده فى ذلك غالبية الضباط الأحرار) بإقالة نجيب؛ فاستقال اللواء نجيب يوم الثالث والعشرين، وفى ليلة الرابع والعشرين اجتمع فى ثكنات العباسية مجموعة من الضباط المنشقين على رأسهم خالد محيى الدين، ووجد هؤلاء الضباط بعد حادث نجيب أن عليهم أن يتحركوا ضد عبدالناصر الذى اتهموه بخيانة الثورة.

وهكذا أصبح مسرح الأحداث معدا لحركة ثورية تتزعمها قوات عسكرية كبيرة كانت تتمتع باتجاهات وطنية وكانت تناهض الميول نحو أمريكا التى تجسدت فى العلاقات بين عبدالناصر وروزفلت.

وعندما علم عبدالناصر بهذا الاجتماع اتجه ومعه مجموعة من الضباط الموالين له من بينهم عبدالحكيم عامر للعباسية لمناقشة الوضع مع خالد ومجموعته. وفى هذا الاجتماع طالب خالد ومن معه بعودة اللواء نجيب؛ وبعد نقاش طويل قبل عبدالناصر ذلك كما وافق على تكوين حكومة جديدة يتولى نجيب رئاستها ويشغل فيها خالد منصب رئيس الوزراء. وفى نفس الوقت اتجه ضابطان من أولئك الموالين لعبدالناصر إلى منزل نجيب وذلك لاستبعاده من المشهد حيث قاموا باحتجازه فى معسكر قريب من القاهرة وهذه المهمة التى أداها كل من العقيد داود عويس والعقيد كمال رفعت أجبرت خالد ومن معه على قبول تسوية اقترحها عبدالناصر. وعلى إثر هذه التسوية عاد اللواء نجيب إلى منصب الرئيس بينما شغل عبدالناصر منصب رئيس

■ الفصل الخامس ■

الوزراء. وفي السايح والعشرين من فبراير احتشد في ساحة عابدين جمهور كبير من المواطنين يؤيدون الرئيس نجيب. وهكذا أحبطت خطط عبدالناصر لاستبعاد نجيب بينما عاد مبعوث ايزنهاور إلى واشنطن بعد فشل المهمة التي جاء لأجلها.

في أعقاب ذلك وفي السادس والعشرين من أكتوبر عام ١٩٥٤ تعرض عبدالناصر - بينما كان يلقي خطابا في الاسكندرية - إلى محاولة اغتيال فاشلة على يد محمود عبداللطيف وكان أحد أعضاء جماعة الاخوان المسلمين.

بعد ذلك بدأ عبدالناصر يعيد النظر في سياساته تجاه اسرائيل وأمريكا تلك العلاقات التي كانت مصدر قلق له لما سببته له من مشاكل.

وأود أن أشير في هذا الفصل إلى أن مجموعة الضغوط التي تحملها الرئيس عبدالناصر في ذلك الوقت كانت لابد أن تؤثر على صحته الشيء الذي أدى بعد ذلك إلى إصابته بالسكر والبارانويا وظهور بوادر الفصام.

● الفصل السادس ●



دسلة إلى شرنسلا اقتات عاتات شيرة

وصلنا إلى مدينة فلورنسا (ذات الطابع المميز لعصر النهضة والمناظر الطبيعية الخلابة) حيث كان مقررا عقد أول لقاء غير رسمى بين ممثلين عن العرب وممثلين عن اسرائيل.

كان يُعقد في فلورنسا آنذاك ما يسمى بمؤتمر دول البحر المتوسط والذي نظمه أستاذ جامعى ذو نزعة

■ عبد الناصر والذين غدروا به ■ ٦٩ ■

■ رحلة إلى فلورنسا .. اجتماعات ولقاءات خطيرة ■

كاريزمية هو البروفيسور «لابيرا» وجاء هذا المؤتمر تحت رعاية وتأيد من قبل الحكومة الإيطالية ممثلة في شخص رئيس الوزراء آمينتورى فانفانى. كما كان من ضمن المشاركين في اقامة هذا المؤتمر أحد التيارات السياسية في الفاتيكان يمثلها بعض قساوسة الجيزويت هذا فضلا عن مشاركة شخصية أخرى تتسم بالغموض وتعتبر رمزا لصناعة البترول في ايطاليا وهو السنيور انريكو ماتى رئيس الشركة الوطنية للبترول.

وللمرة الأولى في تاريخ ايطاليا بعد فشل موسوليني في اعادة تكوين الامبراطورية الرومانية بدأ الزعيم الايطالى آمينتورى فانفانى السعى لأن تلعب ايطاليا دورا قياديا في شئون البحر المتوسط - دورا يجذب أنظار العالم (والأمريكيين على وجه الخصوص) إلى مجد روما القديم وفي ذلك الوقت لم يكن لكل من بريطانيا وفرنسا دور دبلوماسى بارز وذلك في أعقاب العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ — الشيء الذى أغرى «فانفانى» بالسعى إلى اتخاذ ايطاليا للدور الدبلوماسى لهاتين الدولتين.

وجاء حضورى لهذا المؤتمر نتيجة لمجموعة من الظروف. فقد كان ذلك نتيجة للقاء حدث بمحض الصدفة بينى وبين الصحفى الفرنسى «جان دانييل» وهو صحفى فرنسى بارز على طراز ألبير كامى. وقد اكتشف «دانييل» خلال حديثه معى اننى أتبنى نفس وجهات النظر الهيومانية التى يتبناها. وبعد ذلك وجدته يوجه لى الدعوة لحضور هذا المؤتمر.

لقد كان من الصعب مواجهة اغراء السفر إلى ايطاليا وإلى مدينة فلورنسا على وجه الخصوص. إلا أن الجلوس في مناقشات مع الاسرائيليين كان أمرا غير مريح للغاية فاستعنت بمشورة الدكتور مراد غالب المستشار السياسى للرئيس عبدالناصر لاسيما أن الوفد

■ الفصل السادس ■

العربى فى هذا المؤتمر - كما علمت - تضمن شخصيات كان ينظر لها بعين الشك مثل خالد محبى الدين صاحب الاتجاهات الماركسية والذى تزعم التمرد ضد عبدالناصر بعد استبعاد نجيب؛ كما تضمن الوفد أيضا ميشيل عفلق رئيس أحد الأحزاب الشيوعية العربية، وأكرم حورانى رئيس حزب سورى راديكالى آخر هو الحزب الاشتراكى وجورج حنين وهو أحد المفكرين المصريين البارزين والذى كان مناهضا للشمولية كما كان يتسم باتجاهاته الهيمانية. وكما يبدو فإن جميع أعضاء هذا الوفد - باستثنائى أنا - هى شخصيات غير ممثلة لشعوبها وذات اتجاهات ماركسية.

وأعلمت بعد ذلك بموافقة الرئيس وتأييده لحضورى هذا المؤتمر على أن ألاحظ أية تطورات غير عادية وأكتب بها تقريراً. وجاء تساؤلى بعد ذلك «هل من الضرورى أن أشارك فى نقاش مع الاسرائيليين؟» فجاءتني الاجابة «نعم اشترك واثبتنا بتقرير عن ذلك». وهكذا فى لمح البصر وجدت نفسى أنا وزوجتى فى فلورنسا وذلك بعد أن قضينا يومين فى صحبة جورج حنين وزوجته بولا. وكانت «بولا» حفيدة شاعر مصر الكبير أحمد شوقى. وكانت تتمتع بهيئة بيزنطية تشوبها ملامح من «إديث سيتويل» وحتى تلك اللحظة لم يكن أى من أعضاء الوفد العربى قد ظهر، لعلمهم كانوا مرتابين لحضورى. اذ لابد أنهم كانوا ينظرون إلى باعتبارى عميلاً ناصرياً.

وعلى الغداء كان لنا لقاء مع سفيرنا ثروت عكاشة، وهو أحد المفتونين بالشاعر خليل جبران كما كان ينزع إلى الاتجاهات التقدمية الاشتراكية. وكان معالى السفير يتحدث باعجاب شديد عما أسماه «أستاذنا العظيم هنرى كوريل». وكان كل من جورج حنين وبولا يثنون على هذا الوصف، أما أنا فلم أرتح لذلك لأنى لم أكن من عابدى الأبطال كما كان لدى بعض المأخذ على «هنرى كوريل» الذى كان

■ رحلة إلى فلورنسا .. اجتماعات ولقاءات خطيرة ■

رائدا ماركسيا لجيل من الشباب المصريين كما كان زعيما روحيا لمجموعة من الثوريين العسكريين الذين كانوا يناهضون الحكم الملكي. وسألت السفير بعد ذلك: «ومن سيتولى تسديد نفقاتنا في فلورنسا؟» فأجاب «في الواقع لست على علم بذلك». لكنى أعتقد أن مدينة فلورنسا ستتولى ذلك. ولكنى فزعت بعد ذلك عندما اكتشفت أن نفقات هذا المؤتمر كانت مقدمة من المجلس الصهيونى العالمى.

كانت فلورنسا تعج بالأعلام والرايات والبشر، وكانت الشوارع تزينها الألوان في كل مكان. وأمام «البلازو ديلاسينيورا» احتشد الناس ليشهدوا وصول الوفود المختلفة. وكان المشهد خلابا يبدو لهم وكأنه العرض الأول لفيلم من انتاج هوليوود، وتدور أحداث هذا الفيلم في فترة عصر النهضة. لقد كانت المباني تنطق بعبقريّة «برونيليتشى» و«مايكل أوزو» تزينها الأعلام والرايات.

وفي قاعة «البلازوفيتشيو» تجمع الصحفيون والسياسيون. وباعتبارى صحفيا ارتديت مع الصحفيين الملابس المخصصة لنا وهى عبارة عن قمصان بيضاء وسترات داكنة. وكان معنا وفود من شمال افريقيا، كما كان في مواجهتنا صحفيون اسرائيليون من تل أبيب؛ وكان هناك أيضا بعض الخونة من الفلسطينيين الذين كانوا أعضاء في الكنيسة وكان الغموض يكتنفهم كما كان معنا ليبسيون ومستعربون فرنسيون. يا إلهى كيف تسنى للبروقيسور «لابيرا» أن يخلق نظاما وتناغما من هذا الخليط المشحون بالمتناقضات!!

وكنا في البداية متأكدين أن جلسات هذا المؤتمر ستكون خاصة ومغلقة. إلا أننا رأينا بعد ذلك أن طبيعة المؤتمر المغلق لا تتناسب وطبيعة فلورنسا وأهلها الذين - بحكم التمسك اللاتينى الذى يجرى في دماهم - كانوا مغرمين بالخطب المجلجلة والمؤثرة. إلا أن المنطق يقول ان حضور أطراف متنازعة في مؤتمر واحد يفرض عليه أن

■ ٧٢ ■ عبد الناصر والذين غدروا به ■

■ الفصل السادس ■

يكون مغلقا. وفي النهاية حسم البروفيسور «لابيرا» — وهو أحد أعضاء الحزب الديمقراطي المسيحي — الأمر بأن أعطى افتتاح المؤتمر صبغة رسمية وجادة وحضر إلى فلورنسا في ذلك الوقت موكب مهيب مكون من الرئيس الايطالى «جرونشى» ورئيس الوزراء «فانفانى» وممثلى الفاتيكان والوفود الدبلوماسية المختلفة.

وفي قاعة «البلازوفيشيو» الهائلة التى يرجع تاريخها إلى العصور الوسطى بدأت مراسم افتتاح المؤتمر والذى حفلت أيامه الثلاثة بالاضطراب والقلق.

وفي بداية المؤتمر أبدت وفود شمال افريقيا اعتراضها على الاحتفالات والمسيرات العامة التى صبغت أعمال المؤتمر بالصبغة الرسمية، ومن ثم رفضت هذه الوفود المشاركة فى المؤتمر اذا ما سُمح للاسرائيليين بالمشاركة. وتطور الأمر حتى وصل إلى مرحلة هددت فيها معظم الوفود بالانسحاب وعلى رأسهم الأمير مولاي حسن ولى عهد المغرب آنذاك وضيف شرف المهرجان؛ وفي تلك اللحظة لم يكن هناك من بديل أمام البروفيسور «لابيرا» إلا أن يطلب من الاسرائيليين أن ينسحبوا. وفي اليوم التالى جاء الدور على الوفد الفرنسى ليبدى اعتراضه بل ورفضه لحضور الوفد الجزائرى، هذ الحضور الذى قد يفسد — من وجهة نظر الوفد الفرنسى — العلاقات الايطالية الفرنسية، وهكذا تم منع الوفد الجزائرى من الحضور عن طريق قوة من الفرسان الايطاليين. وما أن وصلت أخبار استبعاد الوفد الجزائرى إلى الوفود العربية الأخرى حتى اجتمعت هذه الوفود فى اجتماع مغلق أسفر عن تهديدها بالانسحاب ما لم يتم السماح للوفد الجزائرى بالحضور، ومرة أخرى كان الفوز من نصيب العرب وسُمح للوفد الجزائرى بالحضور، وفي اليوم التالى انضم الجزائريون وانسحب الفرنسيون.

■ رحلة إلى فلورنسا . اجتماعات ولقاءات خطيرة ■

وهكذا بدأ الأمر وكأن العرب أصبحوا سادة الموقف. أما البروفيسور «لابيرا» بعد هذه الأحداث السريعة والمتوالية فقد أصيب بالانهيار. أما المستعرب الفرنسي مسيو «ماتينيون» فقد أصابه الإرهاق الشديد نتيجة محاولاته المستميتة لانجاح المؤتمر؛ وكان هذا الرجل يتوق لأن يرى شهر رمضان يتزامن مع الصيام اليهودي والصيام المسيحي. لقد مات هذا الرجل شهيدا لقضية المصالحة بين العرب واسرائيل.

استمر في المؤتمر عدد من الفرنسيين ذوى الأصول العربية وكذلك الايطاليون. وأدار مولاي حسن أعمال المؤتمر بكفاءة وثبات تكشف عن خبرة وحكمة، واستطاع أن يتخلص من كل العقبات والمشاكل التي اعترضت المؤتمر، هذا بغض النظر عن بعض الجدل الساخن الذي حدث بين الجزائريين، ومسيو بيسانى الذى رفض الانسحاب مع الوفد الفرنسى. كما أن مؤيدى الحبيب بورقيبة كانوا ينظرون بعين الشك لوفد القاهرة. لقد كان الجو حقا يشوبه القلق رغما عن كل شىء.

إلا أن شيئا مهما يستحق الذكر فى هذا السياق. ذلك أنه بينما كنا نشاهد عرضا للقروسية اقترب منى أحد الصحفيين اليهود — وكان يعيش فى باريس — قائلا: «يوجد هنا شخص قطع مسافة كبيرة على أمل أن يتحدث معك. هل تتفضل بلقائه؟ فأجبت: بالطبع. وكان هذا الرجل يدعى «آجان سوكولوفسكى» الذى قدم نفسه على أنه أحد الضباط المساعدين للجنرال «ديان». وكان آجان من أصل بولندى وكان قصيرا وأعرج نتيجة إصابة حربية. وكان لى معه حديثان طويلان. وكان يتوق لمعرفة وجهة نظرى وأرائى بخصوص الحرب بين العرب واسرائيل، كما أخبرنى بانطباعاته عن الضباط المصريين الذين أخذوا كأسرى حرب بعد حربى ١٩٤٨ و١٩٥٦ وذكر لى أن

■ ٧٤ ■ عبد الناصر والذين غدروا به ■

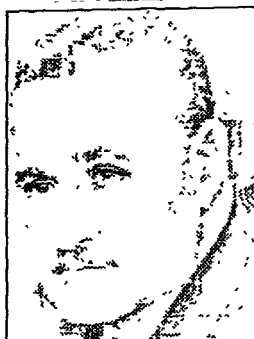
■ الفصل السادس ■

ضباط جيش فاروق كانوا أكثرًا التزامًا وأكثر تدريبًا من الذين خلفوهم. فقد كانوا ثابتين في التحقيقات والاستجوابات التي أجريت معهم، وكانوا اجمالًا أكثر حنكة من ضباط عبدالناصر الذين أسروا عام ١٩٥٦. فضباط عبدالناصر - من وجهة نظر آجان - كانوا مُسيسين، وكانت دوافعهم وبواعثهم مضطربة، كما كانوا سريعي الانهيار تحت ضغوط محققى جهاز المخابرات الاسرائيلي.

وعبر سوكلوفسكى عن عدم ارتياحه لاستمرار الحروب بين مصر واسرائيل الشىء الذى أدى إلى تنشئة جيل من الشباب العدوانى الذى تمكنت فكرة الحرب من أذهانه. وكان يعبر عن خوفه على ابنه الذى كان يقترب من سن التجنيد، وكثيرا ما كان يتساءل كيف ستنتهى هذه الحرب.

وأحيانا كنت أقول له بسخرية يشوبها بعض المنطق أن التجارب أظهرت أن الهزيمة العسكرية لا تخلو من بعض الايجابيات فدولة مثل ألمانيا عندما خسرت الحرب بدأت فى اعادة بناء نفسها وأصبحت أكثر قوة حتى من خصومها السابقين، ولعله قد يكون فى غير صالحنا نحن المصريين لو استسلمت اسرائيل لنا. فالعالم كان سيقدم لها من كل جهة مساعدات اقتصادية تؤدى إلى تقوية نظامها الاقتصادى. وما ذكرته لآجان على سبيل المداعبة وصل إلى السلطات فى القاهرة فى الوقت المناسب.

● الفصل السابع ●



شيء شيء

في لحظة كتابتي لهذا الفصل تأخذني الذاكرة إلى واحد وخمسين عاما ارتبطت فيها ارتباطا وثيقا بمهنة الصحافة؛ فقد بدأت العمل بها عام ١٩٤٥ في وظيفة مراجع صحفى وهى مهمة جعلت منى المحرر الفعلى لاثنتين من الجرائد الصباحية التى كانت تصدر فى القاهرة وقت الحرب احداها كانت تصدر بالانجليزية والأخرى بالفرنسية.

وفي عام ١٩٤٦ أسهمت في بداية عمل المكتب الصحفي المصري، وكان المسئولون عن بداية العمل في هذا المكتب هم ثلاثة: أولهم أنا وشخص آخر مسيحي وثالث يهودي، فكنّا بذلك شركاء عمل واحد على غرار شعار حسن ومرقص وكوهين. وشريكي المسيحي كان جيفري غالي وكان سياسيا قبطيا حازقا من أصل أرستقراطي، وشريكي اليهود كان «بيرتو فارحي» وهو صحفي يهودي مصري ينحدر من عائلة عاشت في القاهرة لفترة طويلة.

وبعد نهاية الحرب التحقت بسكرتارية الجامعة العربية وهناك طلب مني -بالإضافة إلى مهام أخرى- تأسيس المكتب الإعلامي الصحفي فقامت بهذه المهمة وأديتها على أكمل وجه حتى تركت الجامعة العربية لأقوم بإصدار مطبوعاتي الخاصة وذلك عام ١٩٥٤. وفي الليلة التي اندلعت فيها حرب ١٩٥٦ كنت أعمل مراسلا لجريدة «الدلي اكسيريس» اللندنية وقمت بتغطية الهجوم البريطاني على بورسعيد.

ومن سبتمبر عام ١٩٥٤ حتى يناير ١٩٦١ كنت أعمل محررا وناشرا للجريدة المصرية الاقتصادية السياسية وهي جريدة دولية تصدر باللغة الانجليزية. واكتسبت هذه الجريدة ذيوعا كبيرا كما اعتبرت أشهر وأنجح جريدة من نوعها صدرت في مصر في ذلك الوقت.

The Egyptian Economic & Political Review -
Issue No. 1, September 1954, page 4

The Way Ahead

Message of Lt.-Col. Gamal Abdel Nasser

Those who think that the Revolution of the Egyptian Army on July 23rd had for its object the overthrow of a corrupt monarchy and a change in the regime, are mistaken. The main object of the revolution was to raise the standard of living of the bulk of the Egyptian people.

The regime had to be changed because those who had been in power for so many years had always thought more of themselves and their Party than of the interests of the people.

To give only one example, in 1897 the cultivated land of Egypt was 5,047,000 acres; the population numbered 9,715,000. Fifty years later the population had doubled (19,022,000) whereas the cultivated area had increased by only 14%. The consequences of such irresponsible policy are not hard to imagine.

Much the same can be said about industry, commerce and indeed all other sources of national income, not to speak of the lack of planning or of scientific study with which national projects were improvised.

Let me speak very briefly about what the Revolution has done in economic, social and political fields.

Two months after the Revolution the Land Reform Law was passed - many other projects too were by then on the way to being carried out. Twenty acres of desert are now reclaimed every day. Produce from the new Province of El-Tahrir, created in the heart of the desert, can now be seen in the streets of Cairo. Plans have been prepared for the cultivation of some 2 million acres in the next 20 years. The necessary water will not be lacking. The project of the new High Dam above Aswan is now being carried out and we hope that this will be completed within less than ten years. At the same time many important industries are in course of creation.

We know that we cannot live in a state of isolation - we must co-operate with all friendly nations. Already, a new Companies Law has been passed (No 26 of 1954), and another on Investments was promulgated in 1953 (Law No 156). Moreover, several measures have been taken to improve Commerce and Exchange. In every phase of life there has been reform, or at least study in view of reform. Missions have been sent to explore for petroleum and metals in the

desert regions. In a few years we hope to produce our own steel and to have for the first time an Egyptian heavy industry.

In the social field the Permanent Council of Social Services has made a thorough study of all Public Services. Plans have been drawn up, and Collective Units will be equipped to deal with groups of 15,000 inhabitants. They will act at the same time as rural industrial schools. Before long each unit will be self-contained, the first one is now being built and expects to begin work in a few weeks.

Within a month or two a National Assembly will meet, and by the end of the Transitional Period we shall have a sound democratic life.

Everybody now can see that the country is enjoying a state of stability, consolidated by the ever-increasing inflow of foreign capital.

We were determined to resolve the Suez Canal problem, Egypt being a free State, we felt that no foreign troops should remain in her territory against her will.

I am glad that Britain and Egypt came to the agreement announced on July 27th.

The appearance of this Review is indeed opportune, in fact, necessary. Our friends abroad need to know what is going on in Egypt; they want to follow our economic activities and to be informed as to our business life.

The contents of this first edition show an accurate grasp of affairs in a great variety of fields.

I hope that the "Commercial and Industrial Research Organization" will succeed in bridging the gap between the Nile Valley and business circles all over the world.

I am glad to note that the editor has promised me that nothing will be published in the Review except the facts. What we want is not propaganda for Egypt; we only want accurate reports about the development of our country to be known.

Gamal Abdel Nasser

صورة من المقال الذي شارك به اليكاشي جمال عبد الناصر في العدد الأول
من الجريدة المصرية الاقتصادية والسياسية والذي صدر في سبتمبر عام 1954

وبعد مغادرتي السجن تمكنت من السفر إلى ألمانيا الغربية حيث عملت كصحفي غير متفرغ في وكالة الصحافة والاعلام التابعة للحكومة الألمانية. كما تم اعتمادي كمراسل أجنبي في الحكومة الفيدرالية في بون.

وأثناء اقامتي في بون عملت كمراسل صحفي لجريدة «طهران كيهان انترناشيونال»، وجريدة «أفريكاسيا» الباريسية، وكذلك المجلة الفرنسية العريقة «لاتيكنيك مودرن».

لقد أسعدني الحظ بالعمل في العديد من المناصب الصحفية فقد عملت مستشارا اعلاميا حكوميا ومراجعا وناشرا كما عملت مراسلا أجنبيا ومحررا.

ومن خلال هذه الخبرة متعددة الجوانب أمكنني أن أخرج بنتيجة مؤداها أن تأثير العمل الصحفي وحقايقه يكمن في التزام الصحفي بمعايير الدقة والأمانة في نقل الخبر هذا فضلا عن الموضوعية، فالتحيز أصبح مرضا متوطنا في هذه المهنة، كما أصبحت الدعاية وسيلة لاختفاء الحقيقة وغسل المخ هذا فضلا عن كونها سلاحا في يد الديكتاتورية العمياء.

لهذه الأسباب لم أبدأ استعدادا من جانبي عندما طالبتني الحكومة ممثلة في شخص الدكتور حسن أبو السعود تأسيس خدمة اعلامية حكومية عام ١٩٥٤، فقد كنت أفضل أن أقوم باصدار جريدة جادة تتوجه برسالتها إلى صانعي القرار والمفكرين في العالم المتحدث باللغة الانجليزية، والقارئ في هذه الدول ينذر أن يتأثر بالدعاية الرخيصة. وهكذا قدمت اقتراحاتي لاصدار مثل هذه الجريدة، وذكرت للمسؤولين أنه توجد شروط مبدئية يجب احترامها قبل بدء العمل في هذه الجريدة، وأول هذه الشروط هو الثقة.

والثقة بالنسبة لي كانت تعني أنه لا يجب أن أخضع للرقابة وأنه

■ الفصل السابع ■

بإمكان السلطة الثقة بى باعتبارى رقيقا على ما أنشره. كما طلبت بأن أكون حرا فى تقديم المعلومات الدقيقة عن مصر دون اللجوء إلى المبالغة التى كانت تتسم بها وسائل الاعلام المصرية فى ذلك الوقت. كما طالبت بأن يسمح لى بتقديم نقد بناء اذا تطلب الأمر ذلك. كما أخبرت المسئولين أنه لا يمكننا اقناع القارئ الأجنبى بأننا مصدر قيم للمعلومات الموضوعية دون أن نفى بهذه المعايير السابقة.

وأود أن أؤكد هنا أن عبدالناصر تفهم تماما مطالبى والمنطق الذى أتحدث به كما كان متعاطفا تماما مع وجهات نظرى. لقد كان الرئيس عبدالناصر مازال فى أيام حكمه الأولى، وكانت مشاعره واتجاهاته ايجابية، ولم يكن قد تعرض بعد لمكائد المحيطين به، فلم تظهر عليه فى هذه المرحلة الأولى المخاوف والتشككات المميزة للبارانويا التى ألت به فى سنواته الأخيرة. ولكنى سأظل دائما ممتنا له لقبوله أن يكتب أول مقال موقع باسمه فى جريدتى، وفى نهاية مقاله كتب عبدالناصر هذه الكلمات:

«يسعدنى أن أشير إلى أن محرر الجريدة قد وعدنى بأنه لن ينشر إلا الحقائق. نحن لسنا فى حاجة إلى دعاية لمصر؛ لكن ما نريده هو تقديم معلومات دقيقة عن التطورات الحادثة فى بلادنا».

جمال عبد الناصر

لقد حاولت طوال السبع سنوات - وهى كل عمر هذه الجريدة - أن أكون دائما على هذا المستوى. ولست بحاجة إلى القول أن ذلك أدى بى إلى معاداة العديد من الشخصيات كما جلب على عملى بالجريدة كراهية جهاز الدعاية الناصرى ممثلا فى شخص القائمقام عبدالقادر حاتم الذى كان من الطبيعى أن يحقن على جريدة حرة تتمتع بالحماية المباشرة من الرئيس. لقد كان ما يتعب القائمقام - على وجه

الخصوص هو أن جريدتى - من بين كل الجرائد التى تصدر بلغات أجنبية فى مصر، وبعضها كان يتولى إصداره عبدالقادر حاتم كانت الأكثر ذيوعا والأكثر طلبا من قبل السفارات المصرية بالخارج.

يتطلب إصدار جريدة أو مجلة أعدادا خاصا كما يتطلب قبل ذلك كله فريق عمل كفاء ولحسن الحظ فقد تصادف فى ذلك الوقت أن أغلقت جريدة المصرى الوفدية لأسباب سياسية، وهذا يعنى أن طاقما كاملا من الصحفيين الأكفاء أصبحوا بلا عمل كما لم تجرؤ أية جريدة على ضمهم إليها خوفا من السلطة. منحنى ذلك فرصة ضم مجموعة مدربة من الصحفيين من بينهم مرسى الشافعى الذى كان يحرر جريدة المصرى فأصبح محررا للجريدة، وكذلك المحرر الاقتصادى للمصرى أحمد سليم حسن (ابن الأثرى البارز) أصبح محررا للاقتصادى كما انضم إلينا سامى سوكا الذى كان يعمل اداريا بالمصرى. كما انضمت زوجتى فرنسيس إلينا حيث عملت محررا اداريا. كما انضم إلينا كذلك محام أمريكى شاب يدعى «جوستين كولين»، وشابة أمريكية هى كاثرى مايكل. لقد كنا بحق فريقا متحمسا، ولم نضع فى حسابنا ساعات عمل محددة، فقد كنا نواصل الليل بالنهار فى العمل دون انتظار لأى مكافأة. وكان المسئول عن الحسابات والجانب المالى مصر فى يونانى يدعى أجاسمنون مانديكاس الذى أفادنا كثيرا بخبرته ومواهبه.

وهكذا انطلقت جريدتنا بهذه الروح الدؤوبة وحققنا نجاحا وتقديما كبيرا. وكان عدد النسخ التى يتم توزيعها شهريا من مجلتنا ما يقارب العشرين ألف نسخة وهى كمية ضخمة لجريدة من نوعية جريدتنا. وقد خصصت الأعداد الأربعة الأولى لموضوعات محددة مثل البترول، والبنوك، والتنمية الصناعية، والزراعة. كما احتوى كل عدد على وثائق وإحصائيات كان من الصعب توافرها فى جريدة أخرى.

■ الفصل السابع ■

فكنا دائما ما تلجأ للمكتبات ومعاهد البحوث التي يمكن أن تمدنا بالمعلومات والوثائق. كما لاقت المادة السياسية في جريدتنا رواجاً أيضاً. لقد كنا في ذلك الوقت مصدراً قيماً للمعلومات ووجهات النظر والاتجاهات الخاصة بالمصريين.

وحيث أن كل الاصدارات كان لابد أن يكون لها توجه سياسي معين فقد كان توجهنا هو ابراز صورة الليبرالية الاسلامية التقدمية والمستنيرة.

كما كانت القضية الفلسطينية واحدة من القضايا الرئيسية التي كانت تشغلنا. وهنا لابد من الاشارة إلى أن جريدتنا ظهرت في وقت كان العرب فيه قد خسروا الحرب الاعلامية مع اسرائيل التي استغلت فرصة الاعلام العربي المتردى وغير الناضج لصالحها فابتدأت تقدم للعالم صورة للعرب تتسم بالعدوانية والهمجية.

وتطلب هذا الأمر من كل جريدة عربية مسئولة ومحترمة محاولة اصلاح مثل هذه الصورة؛ وهذه هي المهمة التي قبلنا الاضطلاع بها. وعند ارسائنا للقواعد التي يمكن أن توجه العمل في جريدتنا أصررت على أن يكون توجهنا إلى إنهاء الأحداث التراجيدية متسماً بالسخرية والروح النقدية، وهو الشيء الذي اتبعناه في تناولنا لمأساة الفلسطينيين، فأى متفحص مدقق لقضية الفلسطينيين لا يمكن أن يرى فيهم معتدين بل هم المعتدى عليهم، وكثيراً ما كان يسعد المرء أن يقابل العديد من اليهود الموضوعيين الذين يقبلون هذه الحقيقة والذين فضلاً عن تعاطفهم مع العرب كانوا يظهرون ضيقهم بتلك النزعة النازية لدى اسرائيل. ومن بين هؤلاء اليهود أشير إلى «رابي إلمر بيرجر»، والفريد ليلينثال واللذين دأبا على العمل لصالح السلام بين العرب واليهود، واللذين كانا يسعيان لتقديم صورة صادقة لليهود غير تلك الموجودة في الذهن العربي.

أتذكر أن كان لي حديث مع أحد اليهود الأمريكيين وكان اشتراكيا بارزا؛ وفي حديثه معي أخذ هذا الرجل يجادلني ويقدم لي ما يبرر وجود اسرائيل بطريقة لم أسمعها من قبل.

وكان سؤالى له: بما انك اشتراكى كيف يتسنى لك أن تؤيد دولة تمارس تمييزا عنصريا ودينيا؟ وبعد نقاش طويل قال: «أتفق معك في ذلك، فلكونى اشتراكيا أرفض التمييز، ولكن توجد عدة اعتبارات متشابكة علينا النظر فيها فيما يتعلق بهذه القضية، فأنا أرى أن النزعة ضد السامية لم تنته تماما من العالم ولا يفوتنا هنا ذكر ألمانيا وما فعلته، فتحت التأثير السيئ لهتلر تحول المجتمع الأوروبي بأكمله إلى مجتمع عصور وسطى جل غايته اضطهاد اليهود، وهذا يجعلنى أخلص بأن هذا العداء وهذا الاضطهاد قد يتكرر مرة ثانية في أى مكان، بل وليس هذا مستبعدا أن يحدث في أمريكا ذاتها حيث بدأ يظهر فيها اتجاهات ضد السامية. وعلى هذا الأساس فوجود اسرائيل يعنى لى ولعائلتى وأقرانى من اليهود مكانا نلجأ إليه اذا ما تكررت هذه الاضطهادات. ومن ثم فاسرائيل بالنسبة لنا هى مكان النجاة، وهذا ما يجعلنى رغم قناعاتى الاشتراكية أؤيد وجود دولة اسرائيل.

وقد قمنا في جريدتنا بعمل تغطية كاملة للمشكلة اليهودية اتسمت بالحياد والموضوعية. وفي عدد خاص قمت بنشر سيرة مختصرة لتيودور هيرتزل كما قدمت تحقيقا موضوعيا عن السياسة الداخلية الاسرائيلية. وقد أشير فيما بعد لهذه الموضوعية التى اتسم بها التحقيق في مجلة «جويس أوبزرفر» حيث أشاد محررها «جون كيمش» بالموضوعية التى تتسم بها جريدة قاهرية والتى يفتقرون لها للأسف في اسرائيل. وقد أسعدنى هذا كثيرا اذا أننا بموضوعيتنا وحيادنا أسهمنا في تغيير صورة العرب لدى اسرائيل.

لقد كان مجتمع القاهرة في الخمسينيات والستينيات مجتمعا

■ الفصل السابع ■

عجيبا وكارزيميا بدرجة كبيرة. وكانت العلاقات المصرية الأمريكية في تلك الفترة في أحسن حالاتها حيث كان لكيرميت روزفلت ومايلز كوبلاند وأمريكيين آخرين اتصال مباشر بالرئيس عبدالناصر كما كانت المعونة الأمريكية تتدفق على الاقتصاد المصرى، ولاشك أن مجتمعا بهذا الشكل أقرز العديد من الشخصيات المثيرة سواء المصرية منها أو الأجنبية. ومن بين هؤلاء الذين أتذكركم «كيم فيلبى» الذى كان معروفا عنه أنه عميل للمخابرات البريطانية كما كانت له علاقات قوية مع الروس. وكان «فيلبى» رجلا هادئا وحذرا.

ومن بين الذين عرفتهم أيضا في تلك الفترة الكولونيل «سليد بيكر» مراسل الصنداي تايمز الذى كان يزورنى بانتظام اسبوعيا ليحصل على مادة تساعد في كتابة مقاله. وكان الكولونيل «سليد بيكر» أحد أعضاء الملحقية العسكرية البريطانية في القاهرة قبل عمله كمراسل صحفى. ومن بين الأجانب الذين تعرفنا عليهم أيضا «فرانك كيرنز» وزوجته الانجليزية الحسنة «جوين» وكان فرانك مراسلا للـ C.B.S في القاهرة، وكان رئيسا سابقا لطاخم المخابرات المضاد بلندن (CIC) والذى كان مرتبطا ارتباطا مباشرا بمراكز القيادة.

أما العائلة الملكية فقد انحصرت في مجموعة صغيرة من السيدات كبار السن وأميرات تم الاستيلاء على ممتلكاتهن. أما معظم الأمراء فقد اختفوا من القاهرة حيث مات بعضهم، أما الآخرون مثل الأمير عمرو ابراهيم والأمير محمد على ابراهيم والأمير سعيد طوسون فقد استقروا في فرنسا أو سويسرا.

وفي القاهرة استقر الأمير حسن حسن الذى كان شابا وسيما وعلى درجة عالية من الثقافة، والذى كُف نفسه مع الموارد القليلة والمتواضعة التى تركتها له السلطات. وكان مثل هؤلاء الذين تبقوا من عهد فاروق يلقون أسوأ معاملة. وعلى الرغم من أن طبيعة المصريين

تتسم بالانسانية والرحمة فقد لقي مثل هؤلاء الأمراء على يد موظفي الحراسة العنت والمعاملة السيئة. لقد حُرِم هؤلاء الأمراء من حقوقهم السياسية، كما أصبحوا بكل المقاييس مواطنين من الدرجة الثانية وهم سليلو عائلات قدمت الكثير من الخدمات لهذا البلد. وعلى الرغم من كل ذلك فقد قاوموا كل هذا العنت بكبرياء لا يملك المرء إلا أن يحترمه.

ولنعود إلى جريدتنا التي لقيت - فضلا عن أوروبا الغربية - استحسانا كبيرا من الأوروبيين الشرقيين. وكان لنا العديد من الأصدقاء المقربين من الاتحاد السوفيتي الذين كانوا يزورونني في مكنتي ويقولون لي أنهم يعتبرونني «مارك توين» مصر. وكانوا يظنون اني أخفى تعاطفا مع الشيوعية؛ ولكني أخبرتهم ذات مرة أنني لا أميل لأن أكون عبدا لأي مذهب سياسي كما انني لم أكن لأتقبل الجمود الذي كانت تتسم به الشيوعية. والغريب في الأمر أن رأيي هذا الذي ذكرته لهم لم يكن ليغيرهم من جهتي فبقينا أصدقاء؛ وكان أحد أصدقائي الروس المقربين هو «ديميتري ستيفانكين» الذي كان يعد أول سكرتير في السفارة السوفيتية. وأتذكر غضب ستيفانكين ذات مرة عندما أتى البولشوى إلى القاهرة تصاحبه الباليرينا اللامعة جالينا أولانوفافاستضافتهم وزارة الثقافة في فندق من الدرجة الثانية؛ وحينئذ طلبت من ستيفانكين أن يعطيني الفرصة للتحدث مع وزير الثقافة الذي شرحت له قدر فرقة البولشوى وقدر «جالينا أولانوفافا» الذي يجعل العديد من فنادق أوروبا تتنافس على أن تجعلها تقيم فيها؛ ولكن حديثي مع وزير الثقافة وقتها انتهى بأن قال لي. «ولكنها في نهاية الأمر ليست إلا مجرد راقصة»!

أما أحد أسوأ مظاهر الحياة في القاهرة آنذاك فهو الوجود المبالغ فيه للبوليس ورجال المباحث الذين كانوا دائما في حالة ترقب. وكان

■ الفصل السابع ■

من الواضح أن السلطة كانت تضاعف من شكوكها حول أى شخص كما كانت فى حالة ترقب وتوجس دائم من أية مؤامرات ممكنة؛ وهكذا بدأت تظهر البارانويا بكل ملامحها.

وفى هذا المناخ بدأت بنية البيروقراطية تنمو وتزدهر وكان كل هدفها هو الحفاظ على الأمن والبيروقراطية بهذا الشكل ظهرت وتضخمت نتيجة لسيطرة فكرة «اللا أمن». وأدت سيادة هذه الفكرة لدى السلطة إلى وضع المجتمع المصرى فى دائرة مغلقة لم يكن ليتخلص منها إلا بالتخلص من جهاز الأمن أو اصلاحه.

ولعل التوجه الأمنى الشديد فى مصر مازال مرضا متوطنا يحتاج إلى سنوات عديدة من الاستقرار والأمان حتى يمكن التخلص منه. وحتى يومنا هذا وقد أصبحنا فى عصر الأقمار الصناعية مازال محظورا على المصريين تصوير كبارى النيل ومواقع أخرى.

وإذا عدنا للحديث عن جريدتنا لابد أن نشير إلى أننا كنا نضع فى اعتبارنا القراء الأمريكيين فمن ضمن الترتيبات التى كانت بيننا وبين وزارة الشئون الخارجية وقسم الاعلام أنه كان يجب علينا أن نبيع ٢٠٪ من عدد النسخ التى تصدرها للحكومة. وكانت هذه الكمية توزع فى الخارج عن طريق السفارات والقنصليات ومكاتب الاستعلامات وذلك حتى نعطى الفرصة للدول الأخرى أن ترانا بشكل أفضل. وكنت دائما على يقين من أن اصدار أى مجلة له العديد من الامتيازات. إن مجلة من نوع مجلتنا تمثل صوتا يسمعه العالم كله. وقد تصل الآراء التى تحملها هذه المجلة إلى رجال السلطة والنفوذ بالخارج فتؤثر على اتجاهاتهم نحونا.

ونحمد الله إننا نجحنا بسرعة مذهلة، وكان دائما هدف فريق العمل وغايته الوصول إلى مدى واسع من القراء. وهكذا بدأت السفارات الأجنبية تنظر إلينا باعتبارنا مجلة جادة. وكان بعض

■ لا شيء غير الحقائق ■

القراء يظن أن بعض المقالات الرئيسية غير الموقعة تكتبها شخصيات حكومية، بل إن بعض القراء أعتقدوا أن الرئيس نفسه كان يكتب بعض هذه المقالات.

أضف إلى أهمية المقالات فإن معرفة الدبلوماسيين الأجانب أن جريدتنا كانت تصل إلى عواصم بلادهم جعلهم أكثر تيقظاً في مراقبتهم لمجريات الأمور في بلادنا، وهذا كان في صالح المصريين. فقبل ذلك كانت السلطات في الدول الأجنبية تعتمد في معلوماتها على ما يقوله الدبلوماسيون الأجانب وليس على أية مصادر مصرية. وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة لدى هذه السلطات إذ لم تكن مصر تملك وسيلة تعبر بها عن اتجاهاتها. ولكن معرفة الدبلوماسيين الأجانب بوجود اصدار مصرى يصل إلى رؤسائهم في بلادهم جعلهم أكثر متابعة وتطويرهم لعلاقاتهم خارج النطاق الدبلوماسى. وأود أن أعطى مثالا لذلك بمقال كتبته في عدد ابريل عام ١٩٥٩ بعنوان «دبلوماسية نادى الجالية»، وكان هذا المقال عبارة عن مسح لسلوك الدبلوماسيين الأجانب الذين كانوا يتآلفون ويندمجون فقط بأعضاء جالياتهم في نوادى هذه الجاليات؛ وقد أثار هذا المقال غضب العديد من سفراء الدول الأجنبية في مصر الذين شعروا أن هذا المقال موجه إليهم شخصيا.

أما فيما يتعلق بالقضايا السياسية التى لم تكن تخص مصر بشكل مباشر فقد تبيننا أيضا اتجاها محايدا. فإذا نشرنا مقالا يعكس وجهة نظر أحد الأطراف فى قضية ما، كان لزاما علينا دعوة الطرف الآخر ليعبر عن وجهة نظره. وهذا ما حدث عند نشرنا لمقالين يتعلقان بالمشكلة الباكستانية. فقد اتصلت بى السفارة الباكستانية بخصوص كتابة مقال يعكس وجهة نظرهم ازاء مشكلتهم مع أفغانستان والمتعلقة بالمنطقة المتنازع عليها والتي كانت باكستان

■ ▲▲ ■ عبد الناصر والذين غدروا به ■

■ الفصل السابع ■

ترى أنها تخصصها بينما كان الأفغان مستقرين بها. وتم فعلا اعداد المقال عن طريق المكتب الصحفى التابع للسفارة الباكستانية، ويبدو لى أنهم كانوا يعتقدون أنه لا يمكن لأصحاب وجهات النظر المخالفة لهم أن ينشروا مقالا ردا على مقالهم. ولكن التزاما منا بسياسة الجريدة طلبنا من بعض مُحكمى مصر البارزين كتابة مقال يحمل وجهة النظر الأخرى، ونشر هذا المقال ولكننا بعد ذلك كان علينا أن نتحمل غضب الملحق الصحفى الباكستانى وبنفس التوجه نشرنا مقالات عن المشكلة بين الصومال واريتريا. لقد كنا بالفعل نتمتع بحرية كاملة فى نشر ما نريده، وهذه الحرية مُنحنا اياها من خلال تأييد الرئيس عبدالناصر لنا.

هناك حدث آخر يشير إلى نجاح وتأثير جريدتنا كمصدر للمعلومات ووجهات النظر. وكانت البداية عندما تلقيت رسالة عاجلة من مراسل الجريدة بالأمم المتحدة «سيمون مالى»، والذي ذكر لى فيها أن موظفين من وزارة العدل الأمريكية قاموا بزيارته وأخبروه بأن مكتب التحقيقات الفيدرالية يبحث حالته، وذلك لكونه صحفى أجنبى غير مسجل ويمثل جريدة حكومية مصرية. وإذا ثبت عليه ذلك بالفعل كان سيواجه عقوبة السجن بالاضافة إلى غرامة كبيرة.

ولحظة تسلمى لهذه الرسالة توجهت مباشرة إلى رئيس الجهاز الاعلامى المصرى فى ذلك الوقت الذى أبدى غضبه الشديد عندما عرف القصة وقال: «إذا ما أساءوا إلى رجلك فى نيويورك فسوف نقوم بالقبض على مراسلى صحف النيويورك تايمز ومجلة التايمز والنيوزويك». واتصلت بعد ذلك بالدكتور مراد غالب المستشار السياسى للرئيس الذى رأى أن الدبلوماسية فى مثل هذه الأمور قد تكون أفضل، واتفقنا على أن ألجأ إلى السفير الأمريكى «رايموند هير» الذى أخبرنى بأنه سيفعل ما بوسعه وبالفعل أوفى بوعده. وقد

■ لا شيء غير الحقائق ■

اكتشفنا بعد ذلك أن السفارة الاسرائيلية كانت مصدر كل هذه المتاعب، فالتحقيقات التي كنا ننشرها عن مجريات الأمور كانت لا تتفق وأهدافهم.

وبعد كل هذا فمن المنطقي أن يتصور المرء أن جريدة بمثل هذا الشكل تقدم خدمات قيمة لبلادها لابد أن يتم تشجيعها ومساعدتها. ولكن للأسف ما حدث كان عكس ذلك هذا رغما عن سجل عملنا النظيف فقد قبض على وأودعت السجن بتهمة التجسس لصالح اسرائيل.

● الفصل الثامن ●



ما السريّة بين السريّة؟

سألني جون فيلبي منذ بضعة سنوات قائلا: «من هو العربي؟» وكنت وقتها قد انضمت للجامعة العربية كسكرتير ثالث. كما كان بعض أصدقائي من الأقباط يقولون لي دائما، نحن لسنا عربا «لكننا مصريون». ولم يكن لدى حينئذ رد أجيب به على الأوروبيين من نوعية «جون فيلبي» أو على أولئك المنادين بالانتماء المصري

■ عبد الناصر والذين غدوا به ■ ٩١ ■

الخالص. إلا أنه من الممكن أن نقول أنه على الرغم من عدم وجود جنس عربى خالص أو أمة عربية خالصة إلا أننا لا يمكن أن ننكر وجود العروبة أو الهوية العربية بشكل قاطع. وأود فى طرعى لهذه القضية أن أقتبس التعريف القانونى للعربى والموجود فى لائحة الجامعة العربية، والتى تقول فى هذا الشأن. «العربى هو أى شخص يتحدث العربية كلغته الأم، ويعيش فى أى من البلاد المتحدثة باللغة العربية، ويتعاطف مع تطلعات وقضايا الشعوب العربية». والتعريف هنا تعريف جغرافى لغوى سياسى، كما يتسم أيضا بشىء من عدم التحديد.

والسؤال المطروح الآن: هل هناك جنس عربى خالص أو أمة عربية خالصة؟ لقد حاولت بعض الاتجاهات السياسية العربية خلق أسطورة أمة عربية خالصة، ومن أبرز هذه الاتجاهات الاتجاه البعثى الذى حاول ايجاد وتبرير عقيدة سياسية تروق للتجمعات غير المسلمة فى سوريا ولبنان، وفحوى هذه العقيدة السياسية إن الاسلام ما هو إلا نتاج للحضارة العربية، وتسمح هذه الصيغة المناسبة بالتوحيد بين التجمعات المسلمة وغيرها فى اطار اتحاد سياسى عربى واحد يستبعد التوجه الدينى الاسلامى. والبعثية - كما أرى - ليست إلا خليطا غريبا من البونابرتية والماركسية.

من جهة أخرى توجد علاقة - فى تصورى - بين الاسلام والعروبة سواء أراد البعثيون أم لم يريدوا. إن الاسلام بدعوته العالمية الموجهة لكل البشر منح العرب ذلك الوجود العالمى، وجعل للعروبة ذلك التأثير الواسع فى العالم. فالامبراطورية العربية التى امتدت من شمال افريقيا حتى أقصى حدود آسيا لم تكن لتوجد دون الاسلام بأهدافه السامية ودعوته للرحمة، واحترامه لكرامة الانسان الذى كرمه الله فى القرآن.

لقد كان عزام باشا - الذى كان أول سكرتير عام للجامعة العربية -

■ الفصل الثامن ■

مسلمًا متدينًا وكان من بين أهدافه ذات الأولوية أن يجعل من الجامعة العربية شيئًا أكبر من مجرد كونها كيانًا سياسيًا، لقد شعر أن هذا الكيان السياسي لا بد أن تكون له رسالة، كما إن سياساتها فيما يتعلق بالحرب والسلام يجب أن تعكس كافة المبادئ العظيمة التي أرساها القرآن. وظهر ذلك في رفض الجامعة دعوة الولايات المتحدة بشأن التصويت على مسألة مبادئ محكمات نورمبرج وتشريع قوانين عقابية فهذا يتنافى مع قيم الرحمة الموجودة في كل سورة بالقرآن. وفي ذات الوقت أعلنت الجامعة رفضها أيضًا لعملية الاستسلام المفروض على ألمانيا آنذاك والذي كان يأخذ شكل الانتقام. ونفس هذا التوجه تبنته الجريدة الاقتصادية السياسية المصرية بشأن كل القضايا التي كانت تثار في ذلك الوقت، وهذا ما ظهر في دفاعنا عن حقوق الهنود الحمر وشعب أريتريا وباكستان وغيرها من القضايا. وتجلي هذا التوجه لجريدتنا في الصدام الذي حدث بيننا وبين شركات النفط. ففي إحدى المقالات الرئيسية بالجريدة (عدد مايو ١٩٥٩) وُجِه النقد للسعوديين وكانت فحوى المقال أن موارد البترول قد أفسدت العرب. وعلى أثر ذلك المقال تم الغاء ما يربو على ١٠٠ اشتراك في مجلتنا. وأحب أن أشير هنا أنه على الرغم من احترامنا واعجابنا بالملك فيصل إلا أننا لم نكن نتقبل سلوك بعض أعضاء العائلة المالكة الذين كانوا ينفقون موارد البترول الضخمة على الملاهي الليلية بأوروبا وذلك مع التجاهل التام لحاجات دول العالم الاسلامى التى ضربها الفقر.

وهكذا يتضح من هذا الفصل خرافة الكيان العربى الخالص المنفصل عن الاسلام، وهو الاتجاه الذى تبنته الجامعة العربية بقيادة عزام باشا، وهو الاتجاه الذى تبنته أيضا الجريدة الاقتصادية السياسية المصرية.

الجزء الثالث

الاتجاه نحو الشرق

● الفصل التاسع ●



الشرح على السنين

سأتناول في هذا الجزء من الكتاب بالنقد والتحليل والحوار واحدة من أبرز مغالطات الدعاية الناصرية، وهى المغالطة التى تجعل من تأميم شركة قناة السويس فى يوليو ١٩٥٦ انتصارا كبيرا مصر.

من وجهة نظرى يُعد هذا التأميم كارثة قومية كبيرة. فقد كان توقيته سيئا ومتسرعا، وكان القرار

■ عبد الناصر والذين غدوا به ■ ٩٧ ■

بشأن هذا التأميم قرارا ارتجاليا اتخذ دون مناقشة أو دراسة، لقد كان هذا القرار مجرد رد فعل غير مدروس صادر عن قائد منفعل ومصاب بالبارانويا أكثر من مجرد كونه قرارا مدروسا ومحسوبا.

وقد أدى هذا القرار بعد ذلك إلى الاصطدام بقوتين عظميين على درجة عالية من التسليح وذلك في وقت لم تكن فيه قواتنا المسلحة مستعدة، إن مصر مازالت تدفع ثمن هذه الحرب حتى يومنا هذا. ولابراز وجهة نظرى سأسوق في الفصول التالية كل ما يتعلق بهذه القضية من الناحية التاريخية والعسكرية والسياسية والاقتصادية.

وفي هذا السياق أكرر مرة أخرى أن قرائى ليسوا مطالبين بقبول كل ما أقوله بل جل ما أرجوه أن تكون أطروحاتى مدعاة للجدل والحوار. وإذا قُدر لهذا الكتاب أن يقدم اسهاما حقيقيا يثرى مناخ الحوار الصحى والموضوعى بشأن الأحداث المهمة فى تاريخنا فأحسبه قد نجح فى احراز الهدف منه.

لا توجد ديمقراطية حقيقية لا يسهم فيها العامة بآرائهم وأفكارهم حتى لو كانت هذه الآراء متناقضة مع آراء القيادة السياسية.

مصر والمسألة الشرقية

فى الثانى عشر من نوفمبر عام ١٤٧٢ تزوج ايفان الثانى أمير موسكو وولى عهد روسيا من «صوفيا باليولوجوس» ابنة أخ امبراطور القسطنطينية مايكل التاسع (١٢٢٥ - ١٢٢٠). ونتج عن هذا الزواج - وهو الأمر المتوقع - دخول روسيا دائرة الحكم فى القسطنطينية اذ منذ ذلك الحين أصبح من حق أمراء روسيا الادعاء بأن لهم الحق فى الحكم؛ ونتيجة لذلك كان الروس يشعرون دائما

■ الفصل التاسع ■

بضرورة استبعاد الأتراك من القسطنطينية ثم إعادة بناء الامبراطورية البيزنطية. وكانت الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية تؤيد بشدة هذه التصورات التي كانت بمثابة حلم لرجال الدين اليونانيين الذين كانوا يحلمون بالأيام الذهبية للامبراطورية البيزنطية.

وتجلت هذه التصورات في السياسات التي اتبعتها بطرس الأكبر ومن بعده الامبراطورة كاترين الثانية، وهي سياسات كانت تهدف في مجملها إلى استعادة الامبراطورية البيزنطية استعادة كاملة.

ففي عام ١٧٧٦ أرسلت كاترين أسطولاً بحرياً إلى البحر المتوسط لتؤكد من خلاله دور روسيا كحامٍ للتجمعات المسيحية باليونان وللتجمعات اليونانية الأرثوذكسية بآسيا الصغرى والأرض المقدسة. وكانت مصر باعتبارها منفذاً بحرياً مهماً للامبراطورية البيزنطية وباعتبار كون التجمعات المسيحية القبطية بها مأخوذة في الاعتبار من قبل قيصرية روسيا.

وعلى الرغم من أن استبعاد الأتراك من القسطنطينية يمكن أن يكون في صالح المسيحية بصفة عامة إلا أن الغرب الكاثوليكي لم يكن ليقبل بعودة الامبراطورية البيزنطية والنهوض بها من خلال الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية والروس.

وردود الفعل هذه من قبل الغرب يمكن تفسيرها. فلو فرضت روسيا سيادتها على القسطنطينية وسيطرت على كل المسالك البحرية المؤدية إلى البحر المتوسط فهذا يعنى هيمنة روسيا التامة على الجزء الشرقي من البحر المتوسط.

وبهذا الشكل يتسنى لقيصرية الكرملين تأسيس امبراطورية تضم اليونان وجذورها ومصر والأراضي المقدسة وتكون زعامة هذه الامبراطورية لروسيا القوة العظمى.

وفي عام ١٨١٢ أصبحت بيزنطة من حق روسيا وذلك من خلال

■ الشرق وحرب السويس ■

معاهدة تيلزيت التي قام فيها نابليون وألكسندر الأول بتقسيم أوروبا وإعادة تشكيل خريطتها.

وبعد «ووترلو» حاولت روسيا القيصرية جاهدة تفتيت الامبراطورية العثمانية.

وفي مثل هذا الوقت تظهر مصر في الصورة؛ فانتصارات حاكمها محمد علي العديدة على العثمانيين دفعت بالروس إلى استثمار الموقف وادعاء مساعدة السلطان العثماني.

لقد مثلت محاولات محمد علي الاستقلال عن الباب العالي تهديدا جديدا للوجود العثماني في القسطنطينية. ولكن مادام هذا التهديد آتيا من مصدر اسلامي فلم يكن ذلك مقبولا من قبل القوى الغربية وروسيا على وجه الخصوص. وهكذا نجد روسيا توقع اتفاقية دفاعية مع السلطان العثماني سمحت لها بإرسال أسطول بحري وقوة عسكرية للدردنيل وذلك في محاولة منها لاستثمار الموقف لصالحها. تعددت محاولات الغرب لصد التقدم الروسي نحو البحر المتوسط وبلغت هذه المحاولات ذروتها في القرن التاسع عشر عندما اندلعت حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦)، والتي كانت فيها كل من بريطانيا وفرنسا والنمسا وتركيا ومصر في حرب ضد روسيا. وكانت القضية الأساسية وراء هذا التصدي هو ادعاء روسيا سيادتها على تركيا وسواحل شرق البحر المتوسط.

أدى انزعان روسيا للانذار الذي وُجه إليها من قبل النمسا في ١٥ يناير عام ١٨٥٦ إلى التقليل والحد من اندفاعاتها نحو البحر المتوسط.

في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر تركزت جهود الروس بشكل أساسي في اتجاه تحرير البلقان.

انتهت الحرب التي نشبت بين تركيا وروسيا (والتي استمرت من

■ الفصل التاسع ■

أبريل عام ١٨٧٧ حتى مارس ١٨٧٨) بتوقيع معاهدة سان ستيفانو في مارس ١٨٧٨ وانعقاد مؤتمر برلين (١٨٧٨) والتي فقدت تركيا بموجبها أجزاء شاسعة من دول البلقان.

وعلى الرغم من الحذر والتمهل الذى كانت تتسم به اتجاهات الغرب من الأحداث الجارية إلا أن روسيا كانت على وعى تام بأن أى تقدم منها نحو القسطنطينية أو الدردنيل سوف يستدعى التدخل المباشر للغرب بقواته البحرية.

إلا أن الأمور قد اختلفت مع بداية عام ١٩١٨ حيث أحاطت الجيوش الإيطالية بالقسطنطينية، واحتل اليونانيون «سميرنا» وكانوا يعدون للاستيلاء على الأناضول، بالإضافة إلى أجزاء عديدة من تركيا تتجاوز حدود مدينة اسطنبول، كما تم تقسيم أجزاء عديدة من أرمينيا التركية، واستولت فرنسا كذلك على منطقة سيليسيا في جنوب تركيا.

ومن حسن الحظ بعد ذلك أن انشغلت روسيا تماما في ثورتها الأمر الذى أعاقها عن لعب أى دور استعماري خارجي.

وفي الفترة بين ١٩٢٠ و ١٩٢٢ قام الأتراك بقيادة مصطفى كامل بحرب تحريرية كُتب لهم الانتصار فيها، فتم طرد اليونانيين والإيطاليين من المناطق التى احتلوها، وبعد قتال شرس سلم الروس مواقعهم في أرمينيا التركية. وهكذا بدأت تركيا الجديدة في الظهور بعد التفتت الذى أصابها على يد العثمانيين.

إلا أن الروس لم ينسوا أحلامهم بالزعامة والسيادة في منطقة شرق البحر المتوسط؛ وبعد الحرب العالمية الثانية وجد الروس صيغة جديدة لمشروعهم في الشرق. وهكذا منذ هذا التاريخ بدأ التدخل الروسى في الشرق الأوسط يأخذ شكلا أكثر وضوحا، وكانت كل من سوريا ومصر هدفا لاهتمام السوفييت، وهكذا بدأنا نرى شكلا

جديدا من الامبريالية الروسية متمثلا في تشجيع روسيا للاتجاهات اليسارية والماركسية بين صفوف النخبة الفكرية في هذه الدول.

كما أود أن أشير إلى أن الكرملين وعلى رأسه جوزيف ستالين استغل فرصة الاضطراب الذي ساد المنطقة بعد الحرب. وهكذا بتأييد من الحلفاء الغربيين (المخابرات البريطانية في الشرق الأوسط وكذلك فرنسا) والذين كانوا قصيري النظر آنذاك استطاعت روسيا تكوين اتجاه ماركسي في دمشق.

ولعل قارئى بحاجة إلى أن أنكر له أن المشكلات الاقتصادية التي أهدت ببريطانيا بعد صراعات الحرب لعبت دورا كبيرا في تقهقرت الامبراطورية البريطانية، وهو ما كان يخدم الأهداف الشيوعية. بالاضافة إلى ذلك فإن ما عزز الوجود الماركسي في ذلك الوقت أيضا هو حادثة الدبلوماسية الأمريكية التي كانت تعاني من عدم الخبرة هذا فضلا عن الخوف المرضى من الماركسية والذي كان سائدا داخل الكونجرس وفي القيادات الأمنية.

ومع بداية ربيع عام ١٩٥٢ كان الاتحاد السوفيتي قد بدأ يأخذ اتجاهها سياسيا فعلا ازاء مصر والشرق الأوسط. ففي اجتماع باريس عام ١٩٥٢ ضم فضلا عن وزير الخارجية السوفيتي أندريه فيشنسكي العديد من الشخصيات الروسية - عرضت روسيا تقديم مساعدتها لمصر في صراعها الوطني ضد الامبريالية الغربية.

وكان الروس - وهم أمة اشتهرت بلعب الشطرنج - على وعى تام بالتناظر الواضح الموجود في العلاقات الأمريكية العربية. فقد كان تأييد واشنطن المطلق والأعمى للاحتلال الاسرائيلي لفلسطين بمثابة فرصة ثمينة بالنسبة للروس يمكن استخدامها في صالح علاقاتهم مع العرب. وهكذا استطاع السوفييت بناء قواعد عربية / سوفيتية في

■ الفصل التاسع ■

المناطق الحيوية في العالم العربي، ولم تنته السبعينيات إلا وكانت البحرية السوفيتية تتمتع بتسهيلات كبيرة في مواقع بحرية مهمة تمتد من القاعدة البحرية في اللاذقية بسوريا حتى الجزائر.

وكان الشيوعيون يشجعون ويثثون على الاتجاهات السالبة تجاه الأمريكيين من قبل العرب، وهكذا تتشكل لدى العرب في ذلك الوقت اتجاهات سالبة واضحة تجاه أمريكا.

ومن هنا فإننا اذا نظرنا إلى قرار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٥٤ بامداد مصر بكميات هائلة من السلاح يمكننا أن نفسره في اطار الدوافع التقليدية التي كانت متأصلة لدى الروس والتي تنزع إلى السيطرة على البحر المتوسط.

وكانت مصر تمثل القاعدة الأساسية للتوسع بالنفوذ الروسى في المنطقة. فصفقة الأسلحة التي تمت مع مصر كانت تعنى وجود ما يقرب من ١٥٠٠٠٠ روسى كفنيين عسكريين كما كانت تعنى في المقابل وجود قواعد جوية روسية في مصر، هذا بالاضافة إلى أشياء كثيرة. وزيادة نفوذ روسيا في هذه المنطقة من الشرق الأوسط كان يعنى احياء أملها باستعادة أجزاء من الامبراطورية البيزنطية فضلا عن تأسيس امبراطورية جديدة في افريقيا.

ولم يكن من الممكن لدول العالم والقوى العظمى الأخرى الوقوف صامئة أمام هذه الأطماع السياسية بل كان من المتوقع منها أن تتخذ من الخطوات الدبلوماسية والعسكرية ما يحبط هذه الطموحات. هذا مع العلم بأن قوى الغرب كانت لاتزال خارجة من حرب مع كل من ألمانيا واليابان اللتين كانتا لهما أيضا أطماع استعمارية إلا أن الاتحاد السوفيتي كان أشد خطورة من هاتين الدولتين.

وفي اطار هذه الخلفية التاريخية اتخذ جمال عبدالناصر قراره

● الفصل العاشر ●



حرب عام ١٩٤٦

نأتى الآن إلى أحد أهم أحداث تاريخ مصر الحديث،
وهى حرب عام ١٩٥٦ مع بريطانيا وفرنسا واسرائيل.
وستتناول الفصول التالية هذا الحدث بخلفياته
وعواقبه.

لقد جاء تسليح مصر بعد الحرب العالمية الثانية
نتيجة لقرار من الملك فاروق بأن تأخذ مصر دورا بارزا
■ عبد الناصر والذين غدروا به ■ ١٠٥ ■

■ حرب عام ١٩٥٦ ■

في الشرق الأوسط في مرحلة ما بعد الحرب. إلا أن الصراع الذي كان يدور عام ١٩٤٠ فرض إلى حد ما على مصر مستوى معين من عدم التسليح بينما كانت بريطانيا تقوم بامتلاك السلاح بوسائل مختلفة. وكانت الدوافع وراء ذلك هي مزيج من المنطق السياسي، والاحتياجات التي فرضتها حرب بريطانيا مع جيوش روميل والايطاليين.

على الرغم من ذلك فقد جنت مصر بعد نهاية الحرب بعض المكاسب الجوهرية. أهم هذه المكاسب هو السماح بتأسيس بنية صناعية عسكرية أساسية يمكن من خلالها تدريب وتشغيل الآلاف من العمال المصريين المهرة. كما أن احتياجات الجيش الثامن البريطاني أثناء سنوات الأربعينيات كان على مصر أن تقي بها، وهكذا تم تصنيع كم هائل من الأسلحة التي تضم الأسلحة المضادة للطائرات والألغام الأرضية. بالإضافة إلى ذلك فقد تم إنشاء العديد من المصانع (خصوصا في منطقة قناة السويس ووادي حوف) التي تقوم باصلاح وإعادة بناء التجهيزات المعقدة للأسلحة الثقيلة مثل الدبابات والعربات المصفحة والمدفعية. وهكذا وجدنا أن احتياجات بريطانيا فرضت عليها أن تمد مصانعها في مصر بكل التجهيزات الصناعية التي تحتاجها وذلك حتى تعضد من شأن جيوشها في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وإيطاليا.

ومن النتائج الأخرى للحرب هو قيام بريطانيا بدفع ما يقرب من ٣٠٠ مليون جنيه لمصر (وهو مبلغ طائل في ذلك الوقت) لتغطية نفقات الحرب ونتائجها. ومن ثم فالحرب كما رأينا أدت إلى بداية وجود تصنيع مصري في مجالات الذخيرة، وبعد نهاية الوجود البريطاني أرست حكومة الملك فاروق أساسا لتصنيع حربي جديد يعتمد في تمويله على المواد المالية التي تركتها بريطانيا لتغطية نفقات الحرب.

■ ١٠٦ ■ عبد الناصر والذين غدروا به ■

■ الفصل العاشر ■

أما النتيجة الثالثة للحرب فهي عقد صفقة أسلحة سرية مع شخصين ألمانيين هما دكتور «فوس» المدير السابق لمجموعة شركات «هيرمان جوريتج» والدكتور «فيلمر»، وكانت هذه الأسلحة هي التي تبقت بعد نهاية الحرب واشترتها مصر بأسعار مخفضة. وهكذا قبل ثورة عبدالناصر كانت مصر قد اشترت تجهيزات صناعية ضخمة تساعد في الانتاج الحربى كما قامت هي نفسها ببناء صناعة لانتاج السلاح.

بالاضافة إلى ذلك فإن حكومة الثورة سعت إلى عمل مباحثات مع الولايات المتحدة لامداد مصر بالتجهيزات الحربية وكانت هذه الصفقة تتضمن عددا صغيرا من الدبابات وبعض المدفعية. إلا أن عملية شحن هذه الأسلحة قد توقفت نتيجة للتدخل البريطانى، وقد أدى هذا إلى تهديد مصر باللجوء إلى الاتحاد السوفيتى للحصول على أسلحة. وبالفعل تعاقدت مصر مع أوروبا الشرقية لادادها بكمية هائلة من التجهيزات العسكرية الحربية. فقد أمدت روسيا مصر بتجهيزات عسكرية تكفى ٤٥٠٠٠ مقاتل من بينها دبابات مقاتلة متطورة، وعدد كبير من الدبابات الحديثة طراز T34، والمدفعية الثقيلة المتحركة و«مقاتلات الجيت» وقاذفات القنابل وغيرها من الذخائر والأسلحة الحربية.

وهكذا أصبح بإمكان مصر - من خلال صفقات السلاح الروسية السخية - أن تتفوق عسكريا على إسرائيل.

وقد نتساءل هنا عن الدوافع وراء هذا السخاء السوفيتى. لقد كان قادة الكرملين على وعى تام بعواقب ونتائج كل أفعالهم. لقد كانوا يهدفون إلى توجيه ضربة إلى التوازن العسكرى فى الشرق الأوسط. وهنا كان تحدى الغرب واضحا. وهنا أثر السؤال: هل تقف الولايات المتحدة وحلفاؤها دون اكتراث أمام جيش عربى (يجهزه ويعضده

■ حرب عام ١٩٥٦ ■

الروس) وهو يهزم حليفهم إسرائيل؟ مع الوضع في الاعتبار - في هذا السياق - أن انتصار مصر يعنى أيضا تثبيت وترسيخ دعائم الاتحاد السوفيتى داخل الشرق الأوسط والأهم من ذلك فى بعض المناطق الاستراتيجية فى إفريقيا.

ترتبط هذه الاعتبارات بدرجة كبيرة بتلك السياسة التقليدية التى ورثها البلشفيون عن القيصرية والمتعلقة باحياء الامبراطورية البيزنطية. لم يكن الاتحاد السوفيتى أقل طمعا من القيصرية كما تكشف عن ذلك أى دراسة عن أطماع السيادة والزعامة لدى الماركسيين. لقد كانت منطقة الشرق الأوسط ومنطقة بيزنطا فى ذلك الوقت محط أنظار قادة الكرملين الجدد. ولا يوجد شك فى أن فرض السيادة على البحر المتوسط هو أحد الأهداف السياسية الخارجية والثابتة لدى روسيا.

إن أى دراسة عن بناء القوة البحرية السوفيتية فى الخمسينيات والستينيات وتحركاتها فى البحر المتوسط تؤكد هذه الحقيقة. ولا يخفى على أحد أن الاتحاد السوفيتى كان له العديد من القواعد البحرية الممتدة من سوريا فى الشرق إلى الجزائر فى الغرب. كما لا يخفى على أحد أيضا أن نسبة كبيرة من قطع البحرية السوفيتية الحديثة مجهزة خصيصا للخدمة فى البحر المتوسط.

وهكذا فإن تواجد الروس بهذا الشكل داخل منطقة الشرق الأوسط من خلال مصر جعل من الضرورى توجيه ضربة لمصر من وجهة نظر الغرب، ولم يكن لدى الغرب آنذاك تبرير يجعله يوجه ضربة لمصر فى حد ذاتها، ولم يكن يمكن للرأى العام فى أوروبا أن يسمح بالدخول فى حرب مع مصر خصوصا أن أوروبا كانت خارجة توا من حرب مريرة. إلا أن القرار المتهور والمندفع لعبد الناصر بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس أصبح تبريرا واضحا للغرب يمكنه من خلاله

■ الفصل العاشر ■

توجيهه ضربته. هذا فضلا عن أن خطاب الرئيس وقتها كان يحمل نبرة عدائية استغلتها وسائل الدعاية الغربية ضد مصر التي ضخمت من الحدث وحولته من عملية تأمين مسالة وشرعية لشركة مصرية إلى اعلان حرب على الدول المختلفة التي تستخدم قناة السويس. إن اسلوب عبدالناصر في تناول هذه القضية أظهر افتقاره لأى اعداد دبلوماسى يسبق حدثا له مثل هذه العواقب؛ كما ظهر أيضا عدم قدرته على التقييم الدقيق لطريقة تفكير خصومه الدوليين ومزاجهم العام. وعلى الرغم من أن عبدالناصر انتصر فعلا فى النهاية اذ تمكن من السيطرة الكاملة على قناة السويس وشركتها إلا أن هذا النصر كان مكلفا للغاية ولم يكن بمقدور مصر تحمل عواقبه.

فى هذه الآونة كان الرئيس قد أضحى ضحية لحالة البارانونيا التي جعلته شديد الشك والتخوف من وجود تحالف عالمى ضده أكد هذا التخوف الرفض الذى قوبل به عبدالناصر وطلب مساعدته فى تمويل عملية بناء السد العالى. كل ذلك أثر عليه باثولوجيا وزاد من حالات الغضب والانفعال والتوتر الشديد.

لا يوجد شك فى أن عملية تأمين القناة كانت خطأ للرئيس عبدالناصر ومسئوليته الكاملة، فلم يكن بوسع الجيش المصرى آنذاك صد ذلك التحالف الثلاثى المكون من بريطانيا وفرنسا واسرائيل. وفى هذا القوت أيضا ذهب ما يقرب من ٣٠٠ طيار مصرى فى بعثة تدريبية إلى الاتحاد السوفيتى، وعلى هذا الأساس فإن أى معركة عسكرية تحدث فى هذا الوقت كانت تعنى أن تشارك فيها مصر بنصف قواتها الجوية؛ ومما زاد الأمر سوءا أن القادة العسكريين المصريين كانوا يتوهمون أن تحالفا عسكريا بين انجلترا وفرنسا واسرائيل لا يمكن الخوف منه.

بالاضافة إلى ذلك فقد كانت المعلومات التي أوصلتها المخابرات

■ حرب عام ١٩٥٦ ■

للقيادة العسكرية (بخصوص أهداف ونوايا القوات العسكرية الانجليزية الفرنسية) خاطئة وكانت مضللة لهؤلاء القادة؛ وهذا الجهل بنوايا ومقاصد الخصم أدى بالقيادة العسكريين إلى اتخاذ قرارات غير صائبة. كما كانت الشؤون الخارجية والمخابرات العامة على غير ادراك بمدى رد الفعل الذى أحدثه تأميم القناة. والجدير بالذكر أن المخابرات العامة للقوات المسلحة أصبحت في ذاك الوقت مسيسة وكان على رأسها مجموعة من غير الأكفاء الذين كان جل غرضهم هو اظهار ولائهم للقيادة السياسية؛ والغريب في الأمر أن مجريات الأحداث الخارجية كانت تشير بوضوح إلى توجيه عمل عسكري ضد مصر؛ فلم يكن الأمر يحتاج إلى عبقرى حتى يدرك أن الاستعدادات العسكرية الانجليزية والفرنسية في جزيرة قبرص كانت تشير إلى توجيه ضربة مؤكدة إلى مصر. كما كانت الظروف المحيطة آنذاك تستلزم اتخاذ الحذر وعدم اتخاذ خطوات مندفعة خصوصا بعد عملية الاسقاط الجوى التي قامت بها اسرائيل على «متلا» والتي كانت بمثابة التبرير الذى استدعى التدخل الانجليزى الفرنسى.

وبالرغم من كل ذلك فقد بدأت القيادة العسكرية المصرية ترى في مساعدات الروس وسخائهم في المجال العسكرى اشارة إلى احتمال وجود صدام قريب مع اسرائيل؛ فروسيا في ذلك الوقت كانت تمد الجيش بالأسلحة الجديدة والبرامج التدريبية المكثفة، فضلا عن ذلك فقد تم ارسال عدد كبير من رجال المدفعية والفنيين العسكريين وضباط القوات الجوية للحصول على تدريبات مكثفة.

ويجب أن نقول هنا أن الامدادات العسكرية التي تلقتها مصر من روسيا حتى يونيو ١٩٥٦ كانت كافية للغاية لهزيمة جيش الدفاع الاسرائيلى في ذلك الوقت، إلا أن قوة الجيش المصرى لم تكن لتكتمل بدون مجموعة الطيارين الأكفاء الذين ذهبوا للتدريب في روسيا. وفي

■ ١١٠ ■ عبد الناصر والذين غدروا به ■

■ الفصل العاشر ■

ذلك الوقت ذهب ما يقرب من ثلاثمائة طيار للتدريب المكثف في الاتحاد السوفيتي وكان من المتوقع عودتهم إلى مصر في نهاية عام ١٩٥٦.

وكان لجلاء القوات البريطانية عن منطقة القناة في يونيو ١٩٥٦ وذلك بكامل قواعدها العسكرية تأثيره الجذري على تغير الوضع الاستراتيجي في المنطقة، وقد استدعى ذلك تحرك بعض القوات المصرية التي كانت موجودة على الحدود حتى تشغل قاعدة القناة. كما تحركت مراكز القيادة الشرقية من العريش إلى الاسماعيلية. كما أدى جلاء القوات البريطانية عن قاعدة القناة إلى الربط بين منطقتي غزة والعريش من جهة ومنطقة الدلتا من جهة أخرى. وهذا التغير في المواقع الاستراتيجية أدى إلى تغيير الاستراتيجية العسكرية للقوات المصرية التي تركزت في هذه المرحلة في اسلوب الحرب الخاطفة الذي يعتمد على قوات مسلحة بتسليح جيد وسهلة الحركة يمكنها الوصول إلى بعض الأهداف عبر سيناء، كما تم تدريب بعض القوات على كيفية تجميع كبارى عبور سريعة عبر قناة السويس.

وفي ليلة الثلاثين من أكتوبر عام ١٩٥٦ استطاع جيش قوامه ٤٥٠٠٠ رجل عبور القناة في أقل من سبع ساعات.

ولم يكن لمثل هذه الاستعدادات العسكرية من جانب مصر أن يتم تجاهلها من قبل القوى الغربية العظمى. وهكذا وجدت في تلك الآونة كيف أن سياسة الحياد العرجاء التي كانت تتبعها فرنسا وبريطانيا فيما يتعلق بالصراع العربي الاسرائيلي قد تحولت إلى تأييد كامل لاسرائيل وعداء عسكري واضح لمصر.

قامت بريطانيا بالضربة الجوية الرئيسية مستخدمة فيها القاذفات الثقيلة والخفيفة ومعظم أنواع القنابل بما فيها النابالم لتدمير كل التجهيزات العسكرية المصرية، وصاحب ذلك محاولة

■ عبد الناصر والذين غدروا به ■ ١١١ ■

■ حرب عام ١٩٥٦ ■

ازعاج الرأى العام المصرى من خلال توجيه حرب نفسية من خلال أجهزة الراديو. وترددت فى ذلك الوقت دعاوى قبيحة تشوبها العنصرية، وكانت أجهزة الاعلام الغربية تردد هذه الدعاوى وهى من قبيل. «لن يتمكن المصريون من ادارة القناة، كما أن الروح المعنوية للمصريين سوف تنهار وسينقلبون على عبدالناصر عند أول هجمة بريطانية. ليس للمصريين أية قدرة على القتال». ولكن العكس هو الذى ثبت صحته. فعندما جاء الوقت الذى تمكن فيه البحارة المصريون وضباط البحرية من ادارة القناة وتنظيم عمليات المرور أدوا ذلك على أكمل وجه. والجدير بالذكر أن ظروف هذا الهجوم العدوانى والتحالف البريطانى مع اسرائيل وتلك الأكاذيب القبيحة التى روجتها بريطانيا كان لها أثرها السلبى حتى على أولئك المصريين ذوى الثقافة الانجليزية والذين عاشوا فيها لفترة. ومن ناحية أخرى فإن ظروف الرئيس عبدالناصر خلال أيام العدوان القليلة وما صاحبها من توتر وصراع أدت به إلى تكوين أعداء جدد أكثر من أعدائه الذين تكونوا نتيجة سياساته السابقة خلال سنوات حكمه الثلاث الأولى.

● الفصل الحادى عشر ●



ذيانج الشينج الشينج

أسفرت حرب السويس بكافة عواقبها عن انتصار
نفسى وعسكرى كامل للاتحاد السوفيتى. وبمجرد
انسحاب القوات البريطانية والفرنسية من بورسعيد فى
ديسمبر ١٩٥٦ قامت الحكومة المصرية باتخاذ
اجراءات متشددة ازاء ممتلكات مواطنى أى من الدول
الثلاث المعتدية أو تجاه هؤلاء الأجانب أنفسهم الذين

■ عبد الناصر والذين غدوا به ■ ١١٣ ■

يعيشون فى مصر. وهكذا تأممت الشركات الانجليزية والفرنسية واليهودية، كما تعرض مواطنو هذه الدول لمعاملة مهينة ومشينة من قبل البوليس السياسى.

أما بالنسبة لقوانين جنيف التى كانت تمنح مواطنى الدول المعادية الحق فى البقاء فى مصر فقد كانت غير معروفة أو على الأقل تم تجاهلها.

وفى ذات الوقت بدأ التأثير الشيوعى يجد طريقه إلى جذور النظام الحاكم المصرى. وقد أدى هذا التأثير الشيوعى والاشتراكى الواضح فى الحكومة ببعض ممن يعملون بالصناعة والاستثمار إلى تعديل طريقة عملهم وتغيير بنية العمل؛ وكثيرا ما سمعنا عن خروج أموال كثيرة من مصر أثناء العقود اللذين تولى فيهما عبدالناصر الحكم. وقبل نهاية عام ١٩٥٦ كانت الشركات الأجنبية قد سحبت أصولها الاضافية من البنوك المصرية ووضعتها فى البنوك الأجنبية فى الخارج. وحتى تغطى هذه الشركات نفقاتها داخل مصر قامت بالاقتراض من البنوك المصرية؛ وبالتالى فإن السلطات المصرية عندما استولت على الأملاك الأجنبية اكتشفت أنها استولت على أموال مصرية اقترضتها هذه الشركات من البنوك المصرية. ومن العوامل التى أدت إلى زيادة التأثير الاشتراكى على الاقتصاد المصرى هو مجموعة البنوك الأجنبية التى أدت تصرفاتها إلى ارتقاء الاقتصاد المصرى فى أحضان الهيئة الاقتصادية الشيوعية لشرق أوروبا (واختصارها كوميكون COMECON). واضطرت الحراسة فى ذلك الوقت إلى الاستيلاء على أملاك الدول المعادية وهى ما لا يقل عن ٩٥ شركة أجنبية تعاني من ديون وقروض للحكومة المصرية لا تقل عن ٢٢ مليون جنيه وهو مبلغ ليس بالقليل فى تلك الفترة.

ننتقل الآن بالمشهد إلى واحة الخارجة حيث يوجد مسجون اقتصادى شيوعى شاب ذكى هو اسماعيل صبرى عبدالله. وكان

■ الفصل الحادى عشر ■

اسماعيل صبرى شابا وسيما من طبقة أرستقراطية إذ له صلة قرابة بعائلة «سلطان» كما كان ابن عم الوجيه الثرى «محمد سلطان» وانتمى اسماعيل صبرى إلى عائلة لها ميول طبقية كانت محل كراهيته وكان مثاليا ويتمتع بالنظرة الليبرالية.

وتبنى شباب الأرستقراطيين - على شاكلة اسماعيل صبرى - في ذلك الوقت الدفاع عن الشعارات الثورية. وكان اسماعيل بطلا في قضية قانونية معروفة في هذه السنوات. وكان معروفا بالنسبة لعامة المصريين باعتباره ذلك الشيوعى الشاب الذى عذبه البوليس وحمل على ظهره علامات الجلد التى أراها للمحكمة أثناء محاكمته.

انتمى اسماعيل صبرى عبدالله إلى هذه المجموعة من شباب المصريين الذين تتلمذوا على يد أبو الشيوعية المصرية هنرى كورييل - الذى اغتيل مؤخرا في باريس - وكان «كورييل» يهوديا مصريا ثريا استغل ثروته في تكوين جيل كامل من الشباب المصريين ذوى الميول الماركسية، وكان الصالون الذى يعقده في منزله في أوائل الأربعينيات مركزا لتجمع صفوة شباب القاهرة.

وكان اسماعيل ناقما على ما أسماه الطبقة الحاكمة الرأسمالية الملكية الفاسدة في مصر وكان لديه من الشجاعة الكافية ما يجعله يتخذ أية خطوات ازاء القهر البوليسى بسبب معتقداته السياسية والاجتماعية. وجاءت اللحظة التى لعب فيها اسماعيل دوره بعد حرب ١٩٥٦. وكان الاقتصاد المصرى بعد المعركة في حالة سيئة للغاية فالحرب تدمر أشياء عديدة وتكلف الكثير أيضا فضلا عن ذلك فإن الأموال المصرية بالخارج جُمِدت وصودرت. وفي الداخل أصيبت التجارة والصناعة بحالة من الركود، ومما زاد الأمر سوءا توقف برنامج المساعدات الأمريكى لمصر. لقد كانت معظم القوى الغربية في ذلك الوقت في حالة عداء لمصر.

في تلك اللحظة أحست القيادة المصرية بل والرأى العام كله أن الغرب قد أصبح ضد مصر، وأن الصديق الحقيقى هو الاتحاد السوفيتى الذى بدا للرأى العام فى ذلك الوقت فى صورة المخلص، فقد وقف الاتحاد السوفيتى بجانب مصر واستمر فى تقديم المساعدات لها. فى تلك اللحظة ومن قلب المعتقل أرسل اسماعيل صبرى مشروعه إلى عبدالناصر.

وكان هذا المشروع عبارة عن برنامج محدد لاعادة الحياة إلى الاقتصاد المصرى وذلك فى اطار الحكم الشمولى، ومن خلال هيئة وطنية يرأسها رئيس الجمهورية ويكون لها السيطرة الكاملة على التخطيط والتشريع والتنفيذ من خلال سياسة اقتصادية تأميمية. وجد عبدالناصر والمحيطون به فى هذا المشروع طوق النجاة. وهكذا خرج اسماعيل صبرى من السجن وأسند إليه وضع أيديولوجية لهيئة التنمية الاقتصادية، وهى الأيديولوجية التى سيطرت على اقتصاد مصر كله بداية من عام ١٩٦١.

ترجع روح التحكم والسيطرة التى ميزت هذه الهيئة (والتي صيغت طبقا للقانون ٢٠ لسنة ١٩٦٧) لطبيعة السلطة التى كانت هذه الهيئة تعمل تحت آلياتها. فالمواد ٢ و٣ و٤ و٥ و٦ و١٧ من القانون المذكور تمنح هذه الهيئة كل الحق فى وضع القواعد والاجراءات. كما تذكر المواد ١ و١٦ و٢١ و٢٢ و٢٣ و٢٥ و٢٦ بأن السلطة المنظمة فى هذه الهيئة هى فى يد شخص رئيس الجمهورية. وهذا يعنى أن تلك الهيئة التى كان يتحكم فيها الرئيس كان لها حق التصرف كيفما شاءت فى الاقتصاد المصرى. وتركز الهدف الرئيس لهذه الهيئة فى التخلص من الاقتصاد التجارى المصرى القديم بليبراليته المفتوحة والذى يعتمد على مصانع مملوكة لأجانب؛ ومن هنا يبدو لنا التأثير القوى للماركسية اللينينية على الاقتصاد المصرى.

■ الفصل الحادى عشر ■

وهكذا بدأت هيئة التنمية الاقتصادية تتخذ شكلا مجددا ولعبت دورا كبيرا فى عملية الاستحواذ على العديد من الشركات بدعوى أن رأسمالها المسجل كان أقل بكثير من قيمته الحقيقية.

دون الدخول فى المزيد من التفاصيل. نريد أن نوضح أن حكومة عبدالناصر لم تكن تهدف بأى حال من الأحوال إلى استخدام الحل الماركسى لمشاكل الاقتصاد المصرى. إن الضرورة وحدها هى التى أدت بالحكومة إلى محاولة انقاذ الشركات المصرية التى يمتلكها أجنبى من الانهيار والافلاس. وكان الحل هو الاقتراحات التبسيطية التى قدمتها هيئة التنمية الاقتصادية؛ ولكن للأسف لم تضطلع حكومة عبدالناصر بمهمة دراسة هذه الاقتراحات وعواقبها. أما الماركسيون فكانوا على وعى تام بما يفعلونه، وكان هدفهم الأول هو التخلص من الاقتصاد المصرى القائم على مفاهيم اقتصاد السوق، وساعدهم فى تحقيق هذا الهدف مجموعة القوانين التى وضعت فى ذلك الوقت.

وهكذا قامت القيادات فى هيئة التنمية الاقتصادية باستبعاد كل العناصر التى تظهر الولاء للمفاهيم الماركسية أو للقيادة السياسية، ومن ثم تم فصل العديد من المديرين واستبدالهم بأخرين يفتقدون للخبرة المهنية، ولم تكن النتيجة فى النهاية إلا حالة من التشويش والاضطراب، وأثرت أيضا المفاهيم الماركسية على قطاع التصدير والاستيراد الذى كان يتسم بالحيوية فى الاقتصاد المصرى، وعلى وجه الخصوص تصدير القطن اذ لا يخفى على القارئ أن النظريات الاقتصادية الماركسية تغض النظر تماما عن التسويق القائم على قانون العرض والطلب.

فضلا عن ذلك فقد انخفضت مستويات الأجور بشكل واضح نتيجة لضعف نفقات الانتاج، وهذا بدوره أدى إلى القضاء على مفهوم حوافز الانتاج الذى هو أساس لكل اقتصاد ناجح.

وهكذا صار توجه الاقتصاد المصرى نحو شرق أوروبا، وقلت الروابط التجارية مع الغرب، وأصبحت هيئة «الكوميكون» تسيطر على صادرات مصر بشكل واضح.

حدثت المرحلة الأخيرة لهذه المأساة فى أواخر عام ١٩٦١ عندما تم تأمين الاقتصاد الصناعى المصرى كله، وتمت عملية التأمين بسرعة مذهلة اندهش لها حتى الماركسيون ذاتهم، فأتذكرو أن دبلوماسيا يوغوسلافيا ذكر لى آنذاك: «انكم تحاولون أن تفعلوا فى أيام قليلة ما فعلته الدول الشيوعية فى سنوات؛ وأخشى أنكم لن تنجحوا، ولكنكم بهذا الشكل تزيدون من الكارثة». وفى ذات الوقت فى القاهرة اتخذت الكارثة شكلا سياسيا فبعد تأمين القطاع الخاص تم توجيه الاتهامات إلى رجال الصناعة والأعمال وأعضاء الطبقة البرجوازية بأنهم أعداء للشعب ومستغلون ومجرمون.

وفى تلك الفترة شاع استخدام كل مفردات الشيوعية الثورية وذلك فى الراديو ووسائل الاعلام. كما قامت المخابرات بالقبض على الكثيرين، وكانت هذه الفترة فترة ازدهار البوليس السرى الذى امتلأت على يديه المعتقلات ولم يدر الماركسيون الذين احتقلوا بانتصارهم فى ذلك الوقت أنهم كانوا يبدأون مرحلة من الركود والانهياء الاقتصادى التى مازالت آثارها باقية حتى الآن.

وظهرت أولى عواقب عملية التأمين فى سوء العلاقات مع سوريا، ففى ذلك الوقت حدث انقلاب فى سوريا فى سبتمبر عام ١٩٦١ سبب الكثير من المشاكل لعبد الناصر. وفى تلك الفترة أيضا ألغيت الوحدة مع مصر، كما قام مديرو الانقلاب بالقبض على المشير عبدالحكيم عامر الذى كان فى زيارة لسوريا وقتذاك، وهكذا بدأ فصل جديد محزن فى تاريخ مصر.

● الفصل الثاني عشر ●



تجارب الرئيس

استيقظ الرئيس عبدالناصر في صباح أحد أيام ربيع عام ١٩٦١ على أخبار سيئة. لقد حدث تمرد في سوريا على القادة المصريين كما تم أسر المشير عبدالحكيم عامر بينما كان يستمتع باحدى غزواته الغرامية في دمشق. وكان عبدالحكيم عامر يملك عينا لا تخطيء الجمال الأنثوى وكانت انتصاراته في شؤون الغرام تفوق

■ عبد الناصر والذين غدروا به ■ ١١٩ ■

انتصاراته الحربية. وكان عبدالحكيم عامر حاكماً مصرية سورياً. ولا يمكننا القول بأن التمرد السوري لم يكن متوقعاً، فقد سبق للسوريين أن أشاروا على عامر بأن ينصح عبدالناصر بأن ما تم فرضه على المصريين لا يمكن تطبيقه على السوريين. كما رفضت قيادات حزب البعث المحاولات المصرية بالتخلص من هذا الحزب. كما أخبر السوريون عبدالناصر بأنه لا يمكن فرض نظام التأميم المصري على الاقتصاد والصناعة السوريين. ولم تُقابل هذه الاعتراضات إلا بالرفض الأمر الذي أدى إلى حدوث هذا التمرد.

وعندما استبد الغضب الأعمى بعبدالناصر استدعى قواده وأمرهم قائلاً: «عاقبوا السوريين».

ولكن قواد عبدالناصر - الذين اضطربوا بسبب غضب الرئيس - لم يؤدوا أداءً حسناً في أرض المعركة وانسحبوا. وكانت المحادثات التي دارت بين هؤلاء القادة آنذاك جديرة بالتسجيل، والتي أثرت فيها الأسئلة التالية: كيف يتسنى لنا هزيمة السوريين وبأى وسيلة؟ هل من خلال هجوم على اللاذقية؟ لكن السوريين يملكون مدافع بحرية سعة ٦ بوصات أعطيناها لهم، كما أن أكبر المدافع البحرية التي نملكها هي سعة ٤,٧ بوصة. وحتى إذا هزمنا القوات الدفاعية السورية كيف يتأتى لنا انزال مركباتنا البحرية على أرض سوريا حيث تنقسم شواطئها بصعوبة عملية الانزال البحري، ولكن مع ذلك كله لا يوجد أى سبيل آخر إلا الهجوم فالرئيس لا يريد أن يسمع كلمة «الحذر». وفي هذه الظروف فالمشير عامر هو الوحيد الذى يمكن أن يتحدث إلى الرئيس ويجعله يعيد النظر في الأمور، ولكن عامر أسير في دمشق، ومن ثم ما يمكننا فعله هو أن نرسل مندوباً إلى السوريين نرجوهم إطلاق سراح المشير حتى يأتى ليهدىء من روع الرئيس الذى أصابته نوبة الغضب!

■ الفصل الثاني عشر ■

وفي القاهرة وفي نفس ذلك الوقت تتابعت بعض الظروف والأحداث الغربية مثل القبض على البعثة الدبلوماسية الفرنسية واعتقالى ضمنا ومحاكمتى.

وفي هذا السياق أود أن أتعرض لشخصية جديدة شاركت في مسار الأحداث آنذاك وهو القائمقام داود عويس. وكان عويس ضمن مجموعة الضباط الأحرار، وكان أحد الأصدقاء المقربين للمشير عامر. كما كان عويس ضمن مجموعة الضباط التي حوصرت في القالوجا وكان من بينهم عبدالناصر وعامر وآخرون ممن انضموا لمجلس قيادة الثورة. وكان عويس قد دعا للانضمام إلى مجلس قيادة الثورة ولكنه رفض ومن ثم عُيِّن في العديد من المواقع المتميزة داخل القيادة العسكرية، فقد شغل منصب الرجل الثاني في البوليس الحربي بعد القائمقام أحمد أنور. وبعد ذلك انضم للمشير عامر عندما بدأ يمارس نشاطه في سوريا. وكان عويس نشطا في مجال العلاقات السياسية بين مصر وسوريا. كما كان عويس يتمتع بعلاقات حميمة مع قيادات حزب البعث في دمشق وعلى وجه الخصوص ميشيل عفلق وأكرم حوراني وصالح بيطار ونجح في اكتساب ثقتهم. وكان لداود عويس دوره الهام في الصراع الدائر بين الفصائل المختلفة في سوريا. وبعد اتمام الوحدة حدث داخل سوريا استقطاب ما بين حزب البعث اليساري والقائمقام عبدالحميد سراج والذي كان يشغل منصب وزير الداخلية، وكان مقربا لعبدالناصر. وقد حصل سراج على هذا المنصب بعد أن اكتسب ثقة الرئيس بعد أن أفضى إليه بمحاولة السعوديين لتجنيدته لاغتياله بعد أن منحوه ٢ مليون دولار. تطورت الأمور تطورا سريعا في أواخر عام ١٩٦١ نتيجة لمحاولة مصر فرض نظام التأميم والقضاء على كل الأحزاب السياسية في سوريا.

وعندما واجه حزب البعث خطر الانحلال لجأ إلى عويس والمشير

■ مؤامرة ضد الرئيس ■

ولكن بلا جدوى؛ فقد كان عبدالناصر مصرا على التخلص من كل الأحزاب السياسية، وحاول في سبيل ذلك أن يقدم لميشيل عفلق منصب نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة في مقابل عدم استمرار حزب البعث. أدى هذا كله إلى اتخاذ حزب البعث موقف المعارضة من عبدالناصر كما حاول الحزب ضم عويس والمشير عامر فيما يشبه المؤامرة ضد الرئيس. ولكن عويس نقل هذه المعلومات إلى القاهرة.

بعد حدوث الانقلاب وأسر عبدالحكيم عامر تم اختيار عويس ليكون على رأس وفد يتوجه إلى سوريا لعمل محاولة لاطلاق سراح عامر. ذهب عويس يصاحبه ضابطان إلى بيروت أولا ثم أخذ الجميع سيارة إلى دمشق، ولكن عندما وصلوا إلى حدود سوريا علموا أن عامر قد أطلق سراحه وهو الآن في طريقه إلى القاهرة. وفي طريق عودته إلى لبنان وجد عويس أن الصحف اللبنانية كتبت بالتفصيل عن هذه المهمة السرية، وكان الذى أفشى هذه الأسرار هو السفير المصرى في بيروت؛ وعندما وجد عويس ذلك امتلأ غضبا وعاد إلى القاهرة وروح التمرد تسيطر عليه. والحقيقة التى تتضح لنا هنا أن النظام لناصرى كان يفتقر إلى التنسيق مع السفراء كما كان يفتقر إلى النظام والاحساس بالمسئولية هذا فضلا عن انتشار الفساد واستشرائه فيه، وخاصة بين الضباط والمديرين الأمر الذى شوه شكل وسمعة ثورة ٢٣ يوليو. بل إن عبدالناصر نفسه ابتداء في ذلك الوقت الشك في كل من حوله واتهامهم بالخيانة كما كان يرفض أن يسمع لصوت العقل. لقد بدأ الرئيس منذ تلك اللحظة يتصرف كالطاغية، وبدأت مصر تصاب بالضعف والأفول.

لم يأخذ عبدالناصر في الاعتبار الطبيعة المميزة للسوريين والمختلفة عن طبيعة المصريين، فالاقتصاد السورى قائم على التجارة

■ الفصل الثاني عشر ■

ومعايير السوق، وكان من الصعب إخضاعه للتأميم، ولكن عبدالناصر رفض كل النصائح وحاول فرض الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي الذي فرضه على المصريين؛ وهكذا أدى هذا التفكير المندفِع من عبدالناصر إلى حتمية حدوث التمرد في سوريا

وكان عويس آنذاك يشعر بالمرارة الشديدة ذلك لأنه طالما نصح الرئيس بعدم امكانية تطبيق الاصلاحات التي تمت في مصر على سوريا وعلى وجه الخصوص التخلص من كل الأحزاب السياسية وتطبيق نظم الاقتصاد الماركسي.

وكان عويس رجل فعل واتخاذ قرارات ومن ثم قرر أن يفعل شيئاً. وكان يشارك عويس في أفكاره ثلاثة ضباط آخرون هم القائمقام وحيد رمضان، ولطفى واكد عضو البرلمان، والصاغ محمد السقا. وتم تشكيل لجنة ضباط من هذه الشخصيات الأربعة، ومن خلال هذه اللجنة اتخذ قرار صياغة نقد مفصل للحكم الناصري يستخدمونه في صدامهم مع الرئيس.

وبالفعل تم ذلك وبعدما انتهوا من صياغة هذا النقد المفصل زادت قناعتهم بضرورة فعل شيء ، وكانت خطوتهم الأولى هي محاولة ضم المشير عامر الذي كان ضحية لاندفاع الرئيس في سوريا.

ولم يكن عامر على استعداد لاتخاذ موقف ضد «أخيه» جمال وذلك على الرغم من تعاطفه مع آراء عويس ومن معه.

وهكذا وجد عويس ومن معه أنفسهم أمام اختيارين لا ثالث لهما: إما أن يلجأوا للعنف أو للحلول الدبلوماسية؛ ولكنهم فضلوا الخيار الثاني، ووجدوا أنهم لابد أن يضغطوا على عبدالناصر حتى يجري اصلاحات جوهرية. ويجب أن يعلموه بشكل ما بوجود عدد لا بأس به من ضباط الجيش غير راضين عن حكمه، ومن ثم قرروا ارسال خطاب غير موقع يتضمن مأخذهم على حكمه ونقدهم له. وتم فعلا

كتابة الخطاب الذى انتهى بذلك التهديد «ان لم تجر اصلاحات عاجلة فسوف تلقى نفس مصير فاروق». وحمل الخطاب توقيع «الضباط الأحرار». وكتب هذا الخطاب على الآلة الكاتبة فى أحد مكاتب المخابرات، وكتبه ضابط مخابرات شاب يدعى عبدالحفيظ السيناوى. كما أرسل من هذا الخطاب ١٢ نسخة لجميع أعضاء مجلس قيادة الثورة؛ كما تم وضع هذا الخطاب على مكتب عبدالناصر بجوار غرفة نومه.

ويمكن أن تتصور الانزعاج الذى أصاب الرئيس عندما وجد هذا الخطاب على مكتبه؛ فهذا يعنى أن أى شىء يمكن أن يحدث وأنه قد يقتل فى فراشه. كما أن هؤلاء المتمردين الذين أرسلوا له الخطاب يمكن لهم أن يجبروه على التنحى وأن يجبروه على تعيين خلف له منهم. ومن ثم أدرك الرئيس أن التهديد كبير لاسيما أن مصدره خصوم بهذه القدرة.

وكان الرئيس فى هذه الفترة قد أصبح بالفعل ضحية للبارانويا وبدأ يتخيل وجود عمليات ثورية يتم الاعداد لها وتهدف إلى الاطاحة به. فقد كان يتصور أن الجيش بمساعدة بعض العناصر التى كانت موالية لفاروق يمكن أن يُزجج به فى مؤامرة تؤدى إلى استعادة الملكية. وهكذا تخيل عبدالناصر أن الخصوم والأعداء حوله فى كل مكان، وأن بعض ضباط الجيش البرجوازيين ليسوا موالين له ويعدوا العدة لمؤامرة ضد الشعب يساعدهم فيها الرجعيون الموالون للعصر البائد.

وكانت هذه اللحظة هى التوقيت الذى بدأ فيه صلاح نصر يظهر ويلعب دوره باعتباره رئيسا لجهاز المخابرات؛ وللقارىء أن يتخيل ماذا يمكن أن يحدث عندما يكون على رأس جهاز المخابرات رجل قروى جاهل لا يتمتع بأى وجهات نظر سليمة؛ ومُنح صلاح نصر فى تلك الفترة كل صلاحيات السيطرة والقمع للمواطنين المصريين؛

■ الفصل الثاني عشر ■

أضف إلى ذلك أن البلد بأكملها أصبحت تحت رحمة رئيس ملائته البارانونيا شكا وغضبا.

ومع بدايات خريف عام ١٩٦١ أصبح الرئيس يعاني من حالة بارانونيا متطورة؛ كما اشتدت عليه في هذه الآونة أيضا مضاعفات السكر، هذا فضلا عن أن ضغوط الأحداث المتنوعة التي أحاطت به في ذلك الوقت أثرت على قدرته على التمييز. وهكذا اجتمعت البارانونيا مع الضغوط العصبية مع مضاعفات السكر لتؤثر بشكل واضح على جسد وذهن الرئيس.

أخذت المخابرات شهرا للتعرف على شخصيات الضباط الذين كتبوا الخطاب. وتم ذلك من خلال تحديد البصمات الموجودة على الخطاب والتي أدت إلى الكشف عن شخصية عبد الحفيظ السيناوي الذئبي انتحر بعد اعترافه على عويس ومجموعة الضباط الآخرين. وتم القبض على هؤلاء؛ وباستخدام أدوية معينة أجبروا على الاعتراف بكل تفاصيل هذه المؤامرة، بل ان عويس نفسه اعترف بمسئوليته الكاملة عن هذه المؤامرة.

لكن عبد الناصر كان يخشى من تعاطف الناس مع عويس والضباط الذين معه، ولذلك فكان يجب نسج قصة عن خيانة أو تخاير مع اسرائيل أو عن وجود علاقات مع الرجعيين؛ وأسندت إلى صلاح نصر هذه المهمة. إلا أن هذا القروى الجاهل (صلاح نصر) ارتكب العديد من الأخطاء تحولت على أثرها قضية عويس إلى كوميديا على شاكلة أفلام «شارلى شابلن» والاخوة «ماكس».

● الفصل الثالث عشر ●



ساعات المياعة

نستكمل في هذا الفصل إلقاء الضوء على محاولات صلاح نصر العبقريّة لنسج قصة يمكن من خلالها منع أى تعاطف مع عويس وزملائه. وهذه القصة خرجت في مرحلة من مراحلها من يد صلاح نصر وبدأت تأخذ أبعاداً أخرى وقد أدت هذه الأبعاد إلى حدوث مشاكل بين الحكومتين المصريّة والفرنسيّة وبين عبدالناصر

■ عبد الناصر والذين غدروا به ■ ١٢٧ ■

والجنرال ديغول. كما كان من توابع هذه القصة حدوث صراع بين المخابرات والنظام القضائي المصري انتهى بسيطرة عبدالناصر على القضاء من خلال البوليس السياسى.

بدأ صلاح نصر محاولاته لايجاد شركاء لعويس وضباطه سواء كان هؤلاء الشركاء مصريين أو أجنبى. ومن هنا بدأ صلاح نصر عمليات بحث واسعة المدى، وألقى فيها القبض على العديد من المواطنين الأبرياء من القاهرة والاسكندرية، وأطلق المئات من عملاء البوليس السرى ليقترحوا بيوت ممن اعتبروهم «البرجوازيين» وليخضعوهم لعمليات استجواب قاسية؛ وكان السؤال الذى كان يوجه لكل من يتم القبض عليه هو ما اذا كان له أقرباء بالجيش، لقد أراد صلاح نصر أن يقيم علاقة بين عويس والرجعيين.

وقد أشرنا سابقا إلى المشكلة التى قابلت عبدالناصر بخصوص قضية عويس وزملائه، فقد كان عبدالناصر يرى ضرورة أن يُظهروا أمام الرأى العام كخونة. وهذا ليس بمستغرب على عبدالناصر فى مثل حالته الصحية، فمريض البارانونيا يختلط عنده الواقع بالخيال. فمجرد الشك فى وجود مؤامرة يُعد شيئا كافيا لتأكيد وجود هذه المؤامرة.

وسنرى بعد ذلك كيف أن القاعدة الأمنية التى كانت متبعة آنذاك أن عدم وجود أية دلائل ضد الشخص المشكوك فى أمره يؤكد أن هذا الشخص مذنب. ففى تلك الفترة كنا نعيش فى عصر أقرب ما يكون إلى عصر الملكة الحمراء فى قصص أليس فى بلاد العجائب. وهكذا كان لابد من ايجاد دلائل على خيانة عويس أو نسج هذه الدلائل من عالم الخيال؛ فتهمة الخيانة تستدعى وجود شركاء وشركاء ليسوا عاديين، وهؤلاء الشركاء يجب أن يكونوا اسرائيليين أو بريطانيين أو حتى أمريكيين. لقد كان عبدالناصر يرى أن من يقومون بثورة على

■ الفصل الثالث عشر ■

الحكومة ينظر إليهم الناس باعتبارهم أبطالا، ومن ثم لا يجب منح عويس وزملاءه مثل هذه الفرصة.

في هذه اللحظة بدأت مخيلة صلاح نصر تعمل لكي تخلق من العدم هؤلاء الشركاء الوهميين. كانت البعثة الدبلوماسية الفرنسية من أكثر البعثات التي يمكن اختراقها، فقد كانت بعثتهم تتكون من أربعة دبلوماسيين أتوا للقاهرة في محاولة لاعادة العلاقات الدبلوماسية التي كانت موجودة قبل حرب ١٩٥٦، وكان على رأس هذه البعثة السفير « أندرية ماتي » ومعه سكرتير أول وملحق ثقافي وملحق اقتصادي.

زُودت مكاتب هذه البعثة بأجهزة للتنصت من قبل المخابرات وهكذا تم الاستماع لكافة الأحاديث والحوارات التي تمت داخل غرف البعثة الدبلوماسية الفرنسية. وتم تسريب معلومات خاصة بمؤامرة عويس إلى هذه البعثة عن طريق أحد عملاء المخابرات المصرية والذي كان يعمل في هذه البعثة، وهكذا تم تسجيل مناقشات بين الفرنسيين حول هذا الأمر، كما تم الكشف عن وجود تقارير كانت ترسل إلى باريس بشأن وجود مؤامرة عسكرية ضد عبدالناصر، ولكن المشكلة كانت في صعوبة تحديد ما اذا كانت معرفة الفرنسيين بهذه المؤامرة سابقة على تسريب بعض المعلومات عن طريق عميل المخابرات المصري أم لا.

وفي تلك اللحظة قرر صلاح نصر القبض على الملحق السياسي للبعثة وكان اسمه «بيليفير». وبسذاجة من «بيليفير» أراد أن يحمي موظف السفارة الذي أبلغه المعلومات فذكر أن الصحفي «فرانسوا شوفيل» هو الذي أمدّه بالمعلومات عن المؤامرة؛ وكان «شوفيل» قد غادر مصر قبل عدة أيام متجها إلى فرنسا.

وهنا تقرر صلاح نصر إلقاء القبض على كل أعضاء البعثة

■ عبد الناصر والذين غدروا به ■ ١٢٩ ■

الدبلوماسية الفرنسية، ومما لاشك فيه أن هذا حدث بموافقة الرئيس الكاملة، وهنا نرى أيضا مثالا واضحا على البارانونيا المتطورة التي تجعل المريض بها غير قادر على التمييز بين الواقع والخيال. فتفكير عبدالناصر الخاص جعله يعتقد أن الفرنسيين مسئولون فعلا عن تدبير مؤامرة للإطاحة به، ومن ثم وجب معاقبة هؤلاء ومحاكمتهم بغض النظر عن أية حصانة دبلوماسية أو أى شىء من هذا القبيل.

وما أثار غضب وانزعاج الجنرال ديغول أنه علم أن السفير «ماتى» ومن معه تم القبض عليهم فى معتقل بالقرب من القاهرة وكانوا يساقون يوميا إلى مكاتب المخابرات للتحقيق معهم.

وكان السفير «ماتى» ذا شخصية ثابتة قوية تتصرف بشىء من الهيبة والكرامة، على النقيض من ذلك كان «بيليفير» طيعا ومن السهل الحصول منه على تصريحات قد تضره، وكان ضمن المقبوض عليهم المسيو «ميكيل» الذى كان يشغل سابقا منصب رئيس «الكوليج دى فرانس» وهى أحد أكبر المؤسسات التعليمية الفرنسية. وكانت الفتاة الفرنسية الوحيدة ضمن المقبوض عليهم هى «آرليت بو»، وكانت سكرتيرة السفير. ومرت آرليت بخبرة قاسية فى المعتقل كشفتها أمام القضاة.

وبالإضافة إلى الفرنسيين فقد ضمت مجموعة المعتقلين عدلى بك اندراوس المحامى اللامع والسفير السابق لمصر فى باريس، كما عمل أيضا قاضيا، ولا يمكن التعبير عن ملامحه عندما وجد نفسه فى موقع المتهم بعد أن كان طوال حياته فى موقع القاضى أو المحامى على الأقل. وكان ضمن هذه المجموعة أيضا أكبر مساعدى وزير الثقافة المصرى آنذاك وكان اسم هذا المساعد مسعد عبدالمجيد، وكان محدث ذكى لديه القدرة على امتلاك انتباه سامعيه.

كما كان «جابريل انكيرى» ضمن المقبوض عليهم، وكان صحفيا

■ الفصل الثالث عشر ■

مخضرمًا، وكان يقوم بتحرير جريدة فرنسية في القاهرة آنذاك، كما كان يعمل مستشارًا للسفير «ماتى». وكان «ماتى» من أصل عربى فلسطينى وهو أمر سهل له الحركة في أوساط القيادة السياسية. أضف إلى كل هذه المجموعة واحدًا من المقربين من الكنيسة الكاثوليكية وقياداتها وكان اسمه «فؤاد»، والذي اعترف بأنه كان يعمل عميلًا مزدوجًا للبوليس وكان في ذات الوقت يبيع معلومات للسفارات المختلفة في القاهرة. وفي السجن كان يتلقى فؤاد الكثير من الزيارات من قبل قيادات الكنيسة الكاثوليكية في الوقت الذى كانت الزيارات فيه صعبة جدًا. وفي الزنزانة كنا نسمع فؤاد وهو يؤدي بعض التراتيل الجريجورية، وكنا عندما نسمع هذه التراتيل نشعر وكأننا عدنا إلى عصر الاضطهاد حين كان الرمان يلقون بالمسيحيين إلى الوحوش المفترسة في ساحات المصارعة.

● الفصل الرابع عشر ●



شئ شبه الشائنة

لعله من المناسب في هذا الفصل أن أسرد على قارئى الظروف التى أدت إلى اعتقالى.

ففى أحد الأيام بينما كنت أتجاذب أطراف الحديث مع العائلة بعد الغداء جاء الخادم وأخبرنى بأن هناك بعض السادة فى انتظارى ويريدون مقابلتى. وكان من بين هؤلاء شاب ضخم وآخر قصير ونحيف قدم نفسه ■ عبد الناصر والذين غدروا به ■ ١٣٣ ■

على أنه من النيابة، ورجل آخر في الخامسة والعشرين تتسم ملامحه بالصرامة. وعندما قابلتهم قال لي الشاب الضخم: «جئنا لنسألك بضعة أسئلة، كما نريد تفتيش شقتك ومكتبك».

وفي هذه الأونة اعتاد البوليس اقتحام البيوت في الفجر وبطريقة مستفزة، ولذلك كنت أشعر ببعض الراحة، فعلى الأقل قد جاءوا في وقت مناسب.

ولم يكن ذلك الشاب الذي زارنى إلا صلاح نصر نفسه. وقد اكتشفت بعد ذلك مدى تأثير صلاح نصر على عبدالناصر. وفي اللحظة التي جاءنى فيها لم أكن أعلم ذلك ولذلك لم تبدو على دهشة بالغة. وفي مكتبتي بدأ هؤلاء الزائرون التفتيش، وعندما شرعوا في التفتيش وجدوا أنه من الصعب تفتيش مكتبى — الذى كان يغص بأكوام من الأوراق — تفتيشا دقيقا. وهنا قال لي صلاح نصر: «سنصطحبك إلى ادارة المخابرات لبعض الوقت». فقام بالتقاط بعض الأوراق ورسم لصاروخ فضائى كنت قد رسمته لابنتى، ولا يخفى أن هذا الرسم كان من محض الخيال. واكتشف هذه الصورة أحدهم فأراها للآخرين الذين تبادلوا نظرات لها دلالتها وتوحى بمعانى كثيرة. وهكذا اعتبروا ما وجدوه في غاية الأهمية. وهنا قالت زوجتى «يحسن أن أعد لك الحقيبة»، ومثل هذه الجملة البسيطة من زوجتى زادت من شكوكهم، فذكأؤهم صور لهم أن معنى هذه الجملة اننى أعرف مسبقا انهم سيعتقلوننى. فأجاب صلاح نصر زوجتى قائلا: «لا داعى فسيكون معنا لبعض الوقت» وكان يقول ذلك وهو ينظر إلى أنا وزوجتى نظرة شك واتهام. وحتى الآن لم يكن قد وجد شيئا خطيرا ضدى، فغادرت المنزل معهم في سيارة ليموزين سوداء فاخرة أمريكية الطراز. وفي داخل السيارة التصق بى أحدهم وقبض على ذراعى اليسرى بكلتى يديه، وكان الرجل المسكين في غاية الاضطراب

■ ١٣٤ ■ عبد الناصر والذين غدروا به ■

■ الفصل الرابع عشر ■

لعلمه أنه مسئول عن حراسة جاسوس خطير ومحترف (وهى التهمة التى وُجّهت إلى). وبعد أن قطعنا مسافة قصيرة كشر من معى عن أنيابهم الحقيقية. فقد قاموا بتكبيّل عنقى وطرحونى فى أرضية السيارة وذلك بعيدا عن أنظار المارة، كما وضعوا القيود فى يديّ وعصابة على عينيّ. وبعد ذلك قال صلاح نصر محدثا إياي: «لا يمكن أن نتفاخر بك أمام الناس، فماذا يقولون عندما يرون رجلا مكبلا ومعصوب العينين داخل سيارة ليموزين فاخرة، فاخفض رأسك». وكان حارسى يتمتع بالاصرار والثبات الشديدين فكان طول الوقت يضع يديه الثقيلتين على عنقى ويطرحنى فى أرضية السيارة. ولم تكن هذه إلا أول خبرة لى مع المخابرات التى عرفت بعد ذلك أنها قواعد ثابتة تتبع مع كل من تقبض عليه المخابرات العامة للقوات المسلحة إلا اننى كنت محظوظا لأنهم لم يسيئوا لى كثيرا فقد علمت أن سلوكهم ازاء بعض المواطنين الأقل نفوذا كان يتسم بالسوء والوحشية والقسوة، سمة أخرى كانت تميز رجال المخابرات آنذاك هى ثقّتهم الشديدة بأنفسهم التى تصل إلى حد التضخم وذلك لعلمهم المسبق بأن المواطنين يرهبونهم ويعرفون أنهم يمكن أن يحصلوا على أية معلومات لأى شخص أو أى شىء يرغبونه، ولذلك فإن ساكنى القاهرة كانوا مصابين «بغوبيا» من المخابرات وكانوا يشكون فى أن المخابرات تتنصت على أحاديثهم ومكالماتهم التليفونية.

وهكذا انطلقنا بالسيارة فى شوارع القاهرة ولم أكن أجدر صعوبة كبيرة فى تخمين الطريق الذى كنا نسلكه، وذلك من خلال حركات السيارة والفرامل. ووصلت السيارة أخيرا إلى مبنى المخابرات بمنشية البكرى، أخرجونى من السيارة مكبلا ومعصوبا ثم صعدنا سلما قطعنا بعده عشرة خطوات إلى اليمين ثم عشرة إلى اليسار، ووجدت نفسى فى النهاية أمام مكتب على حسب ما بدا لى آنذاك وعندئذ سمعت

صوتا جهوريا يقول لى. «ما اسمك» - عادل ثابت، «ماذا لديك لتقوله عن نفسك؟» - أنا مندهش لاحضارى إلى هنا؟ لماذا أنا هنا؟ «ستعرف حالا». قيلت الجملة الأخيرة بنبرة تحمل التهديد على الطريقة المسرحية، وبشكل يجعل سامعها يشعر بالذنب. ولعل لا أبالغ اذا قلت أن رجال المخابرات هم بحق ممثلون رائعون و لديهم قدرة كبيرة على شحن كلماتهم بشتى أنواع العواطف حتى ليخيل للمرء أنهم تخرجوا من الأكاديمية الملكية لفنون الدراما بلندن أو الجمعية الدرامية بنيويورك. كما أنهم يتمتعون بقدرة خارقة على أن يجعلوك تصدق على قوتهم وقدراتهم الخاصة.

وفى البداية نزعوا عنى أربطة الحذاء والحزام وربطة العنق والأقلام التى كانت معى وهى أشياء يمكن أن تستخدم فى الانتحار عندما يصل صاحبها إلى حد الاحباط واليأس. وبعد ذلك قادونى وأنا مازلت مكبل اليدين ومعصوب العينين إلى حيث دورة المياه وهناك كان كرسى مجهز لى وأجلسونى عليه. وجلست فى دورة المياه لمدة ساعتين جاء أثناءها معظم من كانوا بالدور ليقضوا حاجتهم دون أدنى اكتراث بوجودى.

وأثناء وجودى بدورة المياه كنت أسمع بالحجرة المجاورة صخبا وأصوات صفعات تعقبها تأوهات شديدة. كما كنت أسمع بين الحين والآخر أصوات منتظمة بدت لى وكأنها نفخ يقوم به شخص باستخدام منفاخ كبير، وكان يقطع أصوات النفخ المنتظمة صرخات الضحية المتألمة، ثم تلا ذلك صوت بدا وكأنه أمر يقول «كفاية»، وبعد ذلك وجدت باب دورة المياه يفتح وأحسست بأناس يحملون انسانا يتأوه تأوهات ثقيلة ومتقطعة، وما أن وصل إلى دورة المياه بجانبى حتى بدأ يخرج ما بجوفه. وبعد أن انتهى الرجل أخذه مرة أخرى وأغلقوا الباب. وبعد ذلك عرفت أن ما سمعت قد يكون تسجيلا وليس

■ الفصل الرابع عشر ■

شيئا حقيقيا، وهى الطريقة المتبعة فى تحقیقات المخابرات والتى تمكنهم من ارباب كل من يقومون باستجوابه، وهى طريقة تجعل من يقوموا باستجوابه على استعداد تام لاعطائهم ما يريدون.

وبعد الفترة التى قضيتها فى دورة المياه اقتادونى إلى منطقة الاستقبال، وهناك مكثت مقيدا ومعضوبا أيضا؛ و فى حجرة مجاورة لى سمعت صوتا مألوفا بالنسبة لى لسيدة تعمل صحفية كنت أعرفها جيدا، ولنسميها هنا «كليوباترا». وسمعتها تطلب مقابلة رئيس جهاز المخابرات وكانت طريقتها توحى بأنها تعرفه جيدا، وربما عن قرب. وكانت كليوباترا شخصية معروفة جدا فى القاهرة.

وكانت كليوباترا فتاة مصرية فاتنة وكانت لكثرة علاقاتها مشهورة ومعروفة من الجميع. وكانت تكتسب ثقة العديد من الناس، كما كانت واحدة من الصحفيين الذين يمكن الاعتماد على فطنتهم وذكائهم. وكان من الواضح أن المخابرات كانت ترمى إلى افزاعى عندما سمحت لى بسماع صوت كليوباترا التى كانت تعرفنى جيدا؛ فرجال المخابرات تصوروا أن معرفتى بأن كليوباترا هى مرشدة للمخابرات قد يفزعنى على أساس انها تعرف عنى الكثير. وهكذا قبل استجوابى استخدم معى رجال المخابرات كافة الوسائل التى يهدفون منها إلى تهديدى واخافتى. إلا أن رجال المخابرات كانوا فى وهم. وقد فانتهم حقيقة مهمة وهى أن كليوباترا نفسها – والتى خضعت لابترازهم – كانت موضع شك منى ومن أصدقائى، وبالتالى فإن كان هناك شىء مريب قد فعلناه – فرضا – فمن غير المنطقى أن نسمح لكليوباترا بمعرفة ذلك.

وحتى تلك اللحظة لم يكن لدى أدنى فكرة عن نوايا وبواعث من اعتقلونى. ولكن هؤلاء كانت لهم سبلهم الخاصة فى ايجاد أسباب للاعتقال، فقد يكون سبب ذلك اننى قريب للملك السابق فاروق ومن

ثم فأننا احتكاري رجعى وعدو للشعب - بحد تعبيرهم - هذا فضلا عن كونى متزوجا من فتاة أمريكية، وبالتالي فقد تم تجنيدى من قبل عملاء العدو وأصبحت أنا نفسى عميلا للـ C.I.A أقدم لهم المعلومات التى أحصل عليها باعتبار عملى كصحفى. كما كنت سابقا من طبقة ملاك الأراضي، وهذه الطبقة يراها الماركسيون أحط طبقات الانسانية.

وأود هنا أن أثير سؤالا اعتراضيا: هل كان صلاح نصر شيوعيا حقا؟ أعتقد ان الاجابة الصحيحة هى بالنفى. فأننا على يقين بأن كل المحيطين بعبد الناصر كانوا مجموعة من العبيد التى تردد الأكلاشيهات الماركسية دون فهم أو استيعاب، فهذه الأكلاشيهات ترجمت إلى العربية واستخدمت دون تمييز، وهى أكلاشيهات من قبيل «احتكاري، وامبريالى، وعبيد الامبريالية، وأعداء الشعب، والـرجعيين» إلى آخره. غمرت مثل هذه الأكلاشيهات الاذاعة والتلفزيون، وأعمدة الصحف والجرائد اليومية. وحتى خطب عبد الناصر ذاتها اذا قمنا بتحليلها سنجدها مليئة بالشعارات والتعبيرات الماركسية - اللينينية. كل هذا أعطى انطباعا باتباع الشيوعية والماركسية، ولكن هذا لم يكن حقيقيا فكما ذكرت سابقا وُلِدَ المصرى ممثلا لديه القدرة على استخدام الكلمات بشكل مؤثر في السامعين. وكنت أثناء استجوابى أحاول تهدئة نفسى واقناعها بأننى لست بين أيدي رجال مخابرات حقيقيين ولكن بين أيدي مجموعة من الجهلة الذين أفوقهم فهما وفطنة.

قطع على تفكيرى أمر بالوقوف للتحرك إلى جزء آخر من مبنى المخابرات. ووصلنا إلى مكان حيث نُزعت عنى العُصابة ووجدت أمامى مكتبا كان يجلس عليه رجل تبدو عليه ملامح الغضب والعذوانية، وكان يبدو وكأنه ضابط انجليزى، وكان يرتدى زى

■ الفصل الرابع عشر ■

اللورد كيتشنر وهو الزى المميز للجيش المصرى آنذاك. وكان الرجل كما يبدو فى غاية الغضب والتوتر. وكان وجهه وعيناه وكل ملامحه تعبر عن الغضب أيما تعبير. وبعد برهة أصابتني الدهشة عندما سمعت الرجل يحدثنى بعربية جيدة سائلا وبغضب. «هل تعرف أين أنت الآن؟» وقبل أن أجيب على السؤال خمنت أن الرجل لابد أن يكون من أصل شركسى حتى يكتسب هذه الملامح. وعندما سكنت لفترة أعاد على السؤال وهو يزار فى وجهى. «هل تعرف أين أنت الآن؟» فأجبت وأنا أهتز: «لعلنا فى المباحث». وعندما قلت ذلك وجدت الرجل الواقف بجانبى يندفع نحوى صافعا إياى وهو يسبنى. فعاد ذلك الضابط وحديثى قائلا: «لست فى المباحث». أنت الآن فى المخابرات العامة للقوات المسلحة. فقلت. «أشعر الآن بالراحة فقد كنت أعتقد أنكم المباحث، وبما أنكم تتبعون القوات المسلحة فلا بد أنكم ستعاملوننى بشكل عادل». ولكن الضابط لم يمنحنى الفرصة لإكمال حديثى ففزع فى وجهى قائلا: «وماذا عن المؤامرة؟» فقلت بكل براءة: «آية مؤامرة». فأعاد السؤال بعد أن شتمنى؛ فقلت له: «آية مؤامرة تعنى»، فقد سمعت عن الكثير من المؤامرات، كما توجد شائعات عديدة، ولكن ليست لدى آية معرفة كافية ومباشرة عن آية مؤامرة. فأجابنى بسرعة: «أيها الكاذب، نعلم أنك مشترك فى هذه المؤامرة، فشركاؤك أدلوا باعترافاتهم كاملة، والآن يمكنك أن تتحدث وتعترف أنت أيضا». فقلت: «آية شركاء؟» وهنا اندفع الضابط نحوى وصفعنى وقال: «تحدث». وحاولت أثناء ذلك كله أن احتفظ بأعصابى هادئة فقد كنت أشعر أن ما كان يحدث معى لم يكن أكثر من مجرد مسرحية وزعت فيها الأدوار على مجموعة الممثلين.

وكان صلاح نصر حاضرا أثناء هذا كله ولكنهبقى صامتا برغم أنه العقل المدبر لكل هذا، وكان يبدو أنه يريد أن يلعب معى دور الولد

الطيب. وبعد ما صفعني الضابط قلت له: «أرجوك هدى نفسك ودعنا نتكلم بالمنطق فلست أنوى أن أخفى شيئاً عنكم». كما أضفت قائلاً: «وعلى أية حال يبدو لي أنك لا تعرفني جيداً ولذلك أقترح أن تعود للملفات التي تحتفظون بها عنى». وهنا أشار صلاح نصر للضابط فهدأ الموقف للحظة. وأرسل صلاح نصر طلباً للملف. وكنت منذ عام أو أكثر قد تعرفت على رئيس جهاز مخابرات القوات المسلحة وأرسلت له عدداً خاصاً من جريدتى التى كنت أصدرها فكان أن تسلمت خطاب شكر من المخابرات. وبعد دقيقتين وصل ملفى، وعندما فُتح وجدت فيه جريدتى والآن وبعد أن اطلعوا بالتفصيل على الملف تغيرت اتجاهاتهم بعض الشيء. وبعد ذلك وجه الضابط حديثه إلى قائلاً: «نعرف أنك رجل وطنى ولذا فنحن فى حاجة إلى مساعدتك. أخبرنا بكل شيء نعرفه عن المؤامرة». فشرعت أعطيه ملخصاً عن كل الشائعات التى سمعتها، وهى تدور حول ثلاث مؤامرات يتورط فيها أشخاص مختلفين من القوات المسلحة، ولم يقتنع الضابط بكلامى فسألنى قائلاً: «نريد أن نعرف دورك فى المؤامرة». فأجبتهم قائلاً: «يمكننى فقط أن أخبركم بما أعلمه، فأنا لست جاسوساً أو كاذباً ولكنى مواطن صالح يرغب كل الرغبة فى مساعدة النظام والقانون. وفى تلك اللحظة جاءتنى فكرة ذكية، فقد كنت أعرف أن رجال المخابرات كانوا دائماً يتفاخرون بالأفكار التى نقلوها عن الكتب وتلقوها فى كليات الشرطة عن التحقيق والاستجواب. ففى أكاديمية الشرطة بالقاهرة كانوا يتلقون مقررات خاصة عن طرق ووسائل استجواب الجواسيس وأسرى الحرب. ومن هذه المقررات تعلموا أن ردود أفعال الجواسيس وأسرى الحرب تختلف باختلاف شكل الاستجواب، فمن هؤلاء من يستجيب للتهديد باستخدام العنف البدنى، ومنهم من تؤثر عليه التهديدات بإيذاء العائلة أو الزوجة أو

■ الفصل الرابع عشر ■

المقربين إليه، أما النوع الثالث فهو الذى يستجيب للتملق واللين. وهكذا قررت فى تلك اللحظة أن أكون من الفئة الثالثة. ولتطبيق ذلك عمليا شرعت قائلًا: «أعتقد انكم يمكن أن تستفيدوا منى استفادة قصوى، وكنت فى كثير من الأحيان أفكر فى المجيء بنفسى لتقديم خدماتى؛ فكما تعرفون أنا كاتب، وأعرف العديد من المعلومات بحكم عملى، فأنا أعرف معظم الدبلوماسيين بالقاهرة، وكثيرا ما كانوا يستشيروننى فى العديد من الأمور، ولا أخفى عليكم أننى كثيرا ما كنت أحصل على معلومات منهم دون أن يشعروا بذلك. وشعرت باطمئنان بالغ عندما رأيت أن مناورتى حققت هدفها. وهنا قال لى الضابط: «عادل بيه نحن أيضا كنا نتتبع مسارك باهتمام بالغ، فنحن نعلم جيدا مدى اسهامكم فى مجال الصحافة ونتطلع إلى مساعدتكم ايانا. هل ترغب فى سيجارة وبعض القهوة؟ أعتقد سنتعاون تعاوننا كبيرا فى المستقبل، فالناس الذين تعمل معهم لا يقدرونك جيدا، ولكنك ستستريح معنا». وبالرغم من حيرتى إلا اننى لم أستفسر عن ماهية هؤلاء المفروض انى أعمل لحسابهم. لكن الضابط كان متيقنا من وجود علاقة وتعاون بينى وبين جهات أجنبية أو حتى جواسيس اسرائيليين. وفضلت أن أتركه هكذا. لكن ما أود أن أشير إليه هنا أن أناسا من عينة ذلك الضابط يفتقرون إلى المرونة فى التفكير التى تمكنهم من فهم أن رجلا مثلى - على الرغم من عدائه للسلطة - لا يمكن أن يخون بلده. فمثل هذه الحسابات لم تكن واردة لدى هؤلاء الرجال الذين كانت تغلب عليهم النظرة التبسيطية للأمور التى لا تضع فى حساباتها معطيات الواقع والولاء لفكرة أو مبدأ، وهذه النظرة هى ذاتها التى سيطرت على ذهن رجال البوليس فى تلك الفترة الذين كان خيالهم يجعلهم يتعقبون مواطنين أبرياء ويلصقون بهم تهما مختلفة هى من محض الخيال، ولكن هذه التهم والشبهات كانت تستخدم بعد

ذلك (حتى لو كانت وهمية) في استصدار قرارات باعتقال أناس معينين. وهذه الأوهام بعينها وضعت في ملفي، ففي هذا الملف وصفت باعتباري مواليا للأمريكا، كما أقوم بإصدار جريدة بمساعدة نفوذ زوجتي. كما وُصفت كذلك بأني أتعامل وأتعاون مع كبير الجواسيس الاسرائيليين في القاهرة، وهو المستر «دينيك» الذي كان يعمل وكيلا لشركة كوداك في مصر، كما وُصفت كذلك بأني أتعاون مع السفارات الأجنبية والتي أحصل منها على تعليمات رؤسائي. عنصر آخر يدخل في هذه العملية، وهو تقارير المخبرين القائمة هي الأخرى على الخيال والوهم. هذه التقارير يمكن أن يقتنع بها أي ضابط. بالإضافة إلى هذا كله وكما أشرت سابقا فإن القاعدة الأمنية التي كانت سائدة آنذاك هي أن عدم وجود أي دليل ضد المتهم هو أكبر دليل على خطورة هذا المتهم.

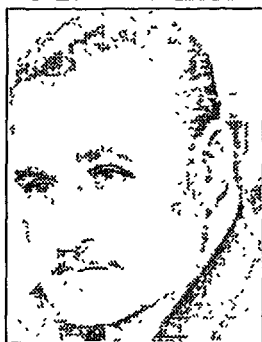
لنرجع الآن إلى عملية الاستجواب التي تعرضت لها. عندما نجحت مناورتى معهم بدأوا يعاملوننى معاملة جيدة، وبدأ صلاح نصر يلعب دور الطبيب معى، فكان يقدم لى القهوة والسجائر كما أحضر لى كباب فى العشاء. وكنت أنقن معه دور ابن الذوات الأبله. وبدأ صلاح نصر يتحدث معى بشيء من الألفة فقال لى: «أنظر يا عادل، نحن فى أشد الحاجة إلى مساعدتك لنا فأنت تملك علاقات لا نملكها. فوكالات المخابرات الأجنبية كما تعرف تعمل من خلال السفارات، والأمريكان هم على رأس هذه القائمة، وإن لم أكن مخطئا فأنت على علاقة جيدة بالأمريكيين لاسيما أن زوجتك أمريكية. نريدك أن تعطينا معلومات كاملة عن الأمريكيين الذين تقابلهم، وقد تساعدنا هذه المعلومات على الوصول إلى الحقيقة فيما يتعلق بالمؤامرة ضد عبدالناصر. فقلت له: «ماذا تريد أن تعرف بالضبط؟» قال: «كل شيء، الأحاديث، والمعلومات التي حصلت عليها والحوارات التي أجريتها مع

■ الفصل الرابع عشر ■

الشخصيات المهمة وتقييمك لهذه الشخصيات». فقلت له: «ولكنى يجب أن أكتب كل هذا، فذاكرتى تحتاج إلى بعض التركيز والتفكير، ومن ثم لا أظن أن الطريقة المثل لحصولك على هذه المعلومات يكون من خلال السؤال والجواب الشفهى». فابتسم صلاح وقال «اكتب ما يحلو لك ثم نتكلم بعد ذلك». فقلت له. «وطالما تريد وصفا كاملا للأحداث والحوارات التى دارت بينى وبين الأجنب، فسأضطر لكتابتها بلغتها الأصلية أى بالانجليزية». فقال لى: «اكتب بالصينية إن أردت فلدينا أفضل المترجمين».

وكان الوقت قد تأخر فقد كانت الساعة قاربت الثالثة بعد منتصف الليل، وإن الجميع قد تعبوا، وقال صلاح للضياف الآخرين «كل شئ قد أعد ولن يكون هؤلاء مصدر مشاكل» وكان يشير على وآخرين كانوا معى، و فى النهاية قال لى: «عمت مساء» أراك فى الصباح.

ثم جاء حارس ووضع الأغلال فى يدى وثبت العصابة على عيني وعدت فى ذات الطريق الذى أتيت فيه فى الصباح، ووضعت فى سيارة كان بها آخرون أيضا، وكان البعض بجانبى يتأوه وآخرون يسعلون وانطلقت بى السيارة فى ظلام الليل.



ثلاثون شيخ السيرة

«هل ستأخذوننى إلى المنزل؟» كان حديثى إلى الحارس بينما كان يكلمنى، ولكنه قال لى: «لا فلم نفرغ منك بعد». انطلقت بنا العربة خلال الليل، وشعرت بوجود آخرين معى، بل وبدأ لى أن هؤلاء الآخرين قد يكونوا أصدقاء لى أعرفهم. ففكرت أن أقول شيئاً يعرف بشخصيتى. ولكنى أعدت التفكير فى ذلك فوجدت أنه

من الأفضل لي ألا يكون لي اتصال بشخصيات هم موضع شبهات، فلماذا أعطى الفرصة لرجال المخابرات للشك في تصرفاتي. وحاولت تخمين مسارنا من خلال وقفات السيارة وتوجهاتها، وبدا لي أننا كنا نتحرك في دوائر، وفي بعض الأحيان كانت السيارة تسرع بنا، وفي أحيان أخرى كانت تبطئ بشدة، وأظن أن سائقى المخابرات كانوا مدربين على ادخال الاضطراب واللبس على نفوس المتهمين، وبعد حوالى ٢٠ دقيقة توقفت السيارة فجأة، ثم تحركنا ببطء، وبعد مجموعة أخرى من الدورات توقفنا ثانية، وسمعت أصواتا كثيرة منها أصوات كلاب ضخمة تنبح بشكل وحشى، كما سمعت أصوات رنين لأغلال، كما سمعت النبرات العالية والمميزة لضباط المخابرات وهى تحمل الأوامر؛ وبعد توقف العربى خرجنا منها الواحد تلو الآخر ثم اقتادونى إلى مبنى وفى احدى حجراته تركنى الحارس بعد أن فك القيود ونزع العصاية.

ولم تكن الحجرة صغيرة، وكانت تحوى سريرا معدنيا فى احدى زواياها وكانت عليه أعطية بيضاء نظيفة، وفى زاوية أخرى كان هناك كرسي خشبى، وكانت النافذة فوق مستوى العين وكانت مغلقة، كما انت الحوائط مغطاة بآيات قرآنية وبعض التوبيخات والنقد الموجه بحكومة، فأحدهم قد كتب مثلاً: «يومك قادم أيها الطاغية». وقد حاولوا - كما يبدو - مسح هذه العبارات، ولكن على ما يبدو لم ينجحوا. وكان من الواضح أن بعض المعتقلين من الاخوان المسلمين كانوا محتجزين بهذه الحجرة.

وبعد لحظات من وجودى بالحجرة شعرت بالاحباط والغضب والتعب الشديد، فابتدأت أقول لنفسى: «ابعد عنك الاحباط وحاول أن تأخذ قسطا من الراحة، فخلعت سترتى، وتمددت على الفراش، فلم تكن إلا لحظات حتى ذهبت فى نوم عميق؛ يبدو اننى كنت مرهقا للغاية.

■ الفصل الخامس عشر ■

جاء صباح اليوم التالى بسرعة؛ وفي السابعة صباحا أحضر لى جندى شاب كوب شاي، وأخبرنى بأن أسرع فى شربه لأن الرجل فى الغرفة المجاورة بانتظار دوره فى أخذ كوب الشاي، وبعد أن تجرعت الكوب أخذه الجندى وخرج، وأصبح هذا هو الروتين الصباحى للأسابيع القادمة، ولكن هذا الروتين كان من أكثر اللحظات التى قضيتها فى السجن والتى أمدتني بالطاقة ذلك لاننى كنت أشعر من خلالها اننى حر، ثم ما هى إلا لحظات بعد انتهاء كوب الشاي حتى أرجع بكيانى إلى جو الزنزانة. وقد ذكرنى هذا كله بالوصف الذى قدمه «أرتوركوستلر» للتجارب التى مر بها بطله وهو فى السجن وذلك فى روايته «ظلام فى الظهيرة». وكان بطل الرواية مثاليا للغاية، وكان دائما يقول لنفسه «ربما فعلا أستحق ما يحدث لى على أيدي هؤلاء الشيوعيين». ولكن مشاعرى فى السجن كانت أبعد ما تكون عن هذه البطولة الزائدة. فالأمر يختلف عندما تكون ضحية لأناس أذكياء ومتعصبين لفكرة أو مبدأ عن أن تكون ضحية لبعض الجهلة. وأتذكر فى هذا السياق قصة تكشف عن حمق وغباء رجال الشرطة فى ذلك الوقت؛ ففى أواخر أيام فاروق جاءت الأوامر بجمع كل الكتب الشيوعية من المكتبات. فجاء السؤال من أحد الضباط الذين يتمتعون ببعض الذكاء: «ولكن كيف يمكننا تمييز الكتب الشيوعية؟» فكانت الاجابة: «لا أعرف، ولكنى أقترح عليكم أن تستولوا على كل الكتب التى تحمل أغلفة حمراء، فهى الأكثر احتمالا أن تكون كتب شيوعية». وفى ذلك اليوم جمع البوليس مجموعة كبيرة ومتنوعة من الكتب ذات الأغلفة الحمراء تتراوح بين كتب الطبيح وكتب المراهقين وكتب جوته، وأوسكار وايلد، وبودلير.

وتروى العديد من القصص والحكايات التى تظهر العقلية الأمنية التى كانت سائدة فى تلك الفترة وفى فترة حكم فاروق أيضا، فأتذكر أن

لوردا انجليزيا قد ألقى القبض عليه في ميدان سليمان باشا وذلك في أيام فاروق لا لسبب إلا لأنه يرتدى رابطة عنق «مقلمة» بألوان حمراء كما كان يحمل نسخة من رواية «لورانس داريل» «جوستين» وكان غلافها أحمر.

وفي أحد المرات ناقشت الأمر مع أحد أصدقائي وكان لواء في البوليس، فكانت اجابته بسيطة ومباشرة؛ لقد قال: «من المفضل أن تقبض على مائة شخص بالخطأ من أن تدع مجرماً يهرب».

وها أنا أجد نفسي الآن معتقلاً لأسباب غامضة من قبل رجال أمن هم من نفس العينة المشار إليها في القصة السابقة وغيرها من القصص. وكان من الواضح أنهم ليس لديهم أى شىء ضدى، ولكنهم كانوا فقط ينفذون الأوامر العليا.

وعلى الرغم من أن القاء القبض على واعتقالى قد يكون مرجعه العداوات الكثيرة التى اكتسبتها نتيجة عملى بالصحافة إلا أن هناك عاملاً آخر يجب تسجيله فى هذا السياق.

فبداية من أحداث عام ١٩٥٦ بدأ الشيوعيون يخترقون جهاز الأمن المصرى بشكل ثابت. كما كانت توجهات جهاز الأمن فى الفترة التى سبقت القبض على ماركسية للغاية، فكانت كل وسائل الاعلام بلا استثناء تردد شعارات الماركسية التى كانت رائجة فى أجهزة اعلام أوروبا الشرقية، فقد تم وصفى أنا وأمئالى باعتبارنا برجوازية خائنة ومتعفة؛ وفى ذات الوقت فقد انتمى ضباط الجيش الذين تم القاء القبض عليهم (عويس وزملائه) إلى ذات الطبقة، وهى الطبقة التى كان يسمى الجهاز الاعلامى أصحابها بأعداء الشعب. ومن ثم كان يجب تطهير الجيش من ذلك الفساد البرجوازى. وفى ذلك الوقت وتحت تلك الظروف كانت القيادة السياسية تتوقع وجود ثورة

■ الفصل الخامس عشر ■

مضادة تخرج من الجيش ويسهم فيها واحد مثلى له علاقات مقربة بالعائلة المالكة والعهد الملكى.

كما أن عبدالناصر فى ذلك الوقت - لأسباب سأفصلها فيما بعد - لابد أنه كان يشعر بالتهديد فى تلك الآونة لاسيما بعد انهيار الجمهورية العربية المتحدة وثورة السوريين فى دمشق. وفى تلك الظروف كان عبدالناصر يعتقد ان احتفاظه بالعناصر الشيوعية حوله قد يكون أفضل وسيلة لتأمين نفسه، وهذا كان طبيعيا بالطبع كما كان من الطبيعى أيضا أن يقوم الشيوعيون باستغلال هذه الفرصة أيما استغلال.

أما بخصوصى فقد أخذت قرارى فى اليوم السابق أن أدخل حرب ذكاء مع رجال المخابرات، كما كنت أهدف إلى تكوين استراتيجية مؤثرة للدفاع ضد أية اتهامات لم تتخذ شكلا محددا بعد. ومن ثم فكان من الضرورى لى أن أدخل فى مباراة ذهنية استخدم فيها ذاكرتى والمعلومات التى أحصل عليها حتى عشوائيا واستخدم فيها أيضا تفكيرى الهادئ وغير العاطفى فى التقييم الجيد لقوة خصمى، وماهى الذين اعتقلونى وطبيعة أسئلتهم ونواياهم. والخطوة الأولى التى كان على اتخاذها هى تحديد ماهية خصمى. هل هم الروس أم المصريون أم الأمريكيون؟

لكن قبل ذلك كله كان على أولاً أن أراجع الموقف الاستراتيجى العام للمناخ المصرى فى تلك اللحظة التاريخية ومجموعة الأحداث التى قد تكون أسفرت عن تلك العداوات التى ظهرت على السطح.

والنقطة الأولى التى أود تناولها هنا هى تحديد مدى الاختراق الشيوعى لنظام الحكم المصرى آنذاك، والسؤال الذى طرحته على نفسى كان مايلى: كيف يمكن لأولئك العسكر الذين كان معظمهم ينتمى لطبقة ملاك الأراضي - وذلك مع وجود استثناءات بسيطة

لبعض الذين كانوا ينتمون للطبقات الفقيرة — أن يتحولوا بين يوم وليلة إلى دعاة للماركسية؟ وكان على أن أجيب على هذا السؤال وغيره حتى أتمكن من تحديد ماهية أولئك الذين أَلعب معهم لعبة الذكاء. وفي التاسعة صباحا وُضعت الأغلال في يدي والعصاة على عيني حسب الروتين المتبع، وتم اقتيادي إلى حجرة فسيحة ومشمسة وهناك وجدت مكتبا وأوراقا وأقلاما، كما قدموا لي فنجان قهوة. ولم يظهر صلاح نصر أو أى من الضباط الآخرين؛ وعندما استفسرت عن ذلك أخبروني: «أنهم يأتون في الحادية عشرة».

وفي هذه الغرفة جلست لأكتب تقريراً مفصلاً عن أنشطتي الصحفية ووضعي بصفة عامة كما طُلب مني؛ فشرعت في كتابة كافة التفاصيل الخاصة بكل الحوارات والأحاديث التي كانت لي مع أصدقائي الأمريكيين على مدار السنوات الماضية، فكنت أكتب كل ما تحدثت به مع السفير «كافري» نفسه، وحواراتي مع السكرتير السياسي والسكرتير الاقتصادي هذا فضلاً عن المحقق العسكري وممثل الـ C.I.A. وهكذا ظللت طوال اليوم أكتب تقريراً مفصلاً وشجعتني على ذلك أقذاح القهوة والمشروبات الخفيفة التي كانت تقدم لي. وجاء الليل وكنت مازلت أكتب؛ وفي الثانية صباحاً حضر مجموعة من الرجال عرفت أنهم المترجمون، وكنت أرى في عيونهم مدى الضيق الذي أصابهم عندما رأوا كم الورق الذي كان عليهم ترجمته. وفي حوالي الثالثة صباحاً جاء صلاح نصر ولكنه قال: «لم أطلب منك كتابة قصة حياتك». فقلت له: «ولكنك طلبت التفاصيل». فكان رده: «أكتب فقط قائمة بالموضوعات التي كنت تناقشها أنت وشركائك».

ومن ثم قمت بانتقاء قائمة بالموضوعات التي كتبت فيها في الجريدة المصرية الاقتصادية والسياسية، وكتبت هذه القائمة التي كانت تضم موضوعات عن الاقتصاد المصري، والتوجهات ازاء

■ الفصل الخامس عشر ■

الشئون العالمية، وسياستنا تجاه أفريقيا والشرق الأوسط، والخليج. «هذا يكفى» كان حديث صلاح إلى «الآن وقع على هذا».

وقبل التوقيع أضفت ملحوظة فى النهاية قلت فيها «عندما كان يطلب منى معلومات مفصلة كنت أرسل لأصدقائى واحدة من أعداد جريدتى التى نوقش فيها الموضوع المطلوب بالتفصيل وأردت بذلك أن أضع نفسى فى وضع آمن، وذلك لأن الجريدة كانت تخضع للرقابة الحكومية، وكانت كل المادة المنشورة فيها معروفة للحكومة، وهذه الملحوظة بالطبع خففت من قيمة التقرير الذى كتبته باعتباره اعترافا منى أو شىء من هذا القبيل».

ولم يلحظ صلاح نصر الملحوظة التى كتبتها فى النهاية فقد كان يتكلم فى التليفون مع رئيسه قائلا «أخبار سارة لقد اعترف عادل ثابت اعترافا مفصلا».

لكن صلاح أصيب بالاحباط عندما اكتشف المترجمون الملحوظة التى كتبتها. وفى تلك الليلة أستدعيت للمثول أمام وكيل النيابة وهناك كان بإمكانى أن أحدث بحرية فقد كان الرجل يمثل القضاء المصرى. وكان حاضرا أيضا رجلا ن ممثلا ن عن جهاز المخابرات، وكانت عيناهما تنطق بالتهديد. وعندما بدأت الكلام وجهت حديثى لوكيل النيابة فقلت له: «أنا فى غاية السعادة للقاءك ولكن قبل المضى فى التحقيق أود تسجيل شىء مهم وهو اننى أتهم الهيئة التى يمثلها هذان السيدان بأنها سعت بشتى الطرق لأن تفرض على أن أقول اننى خنت بلدى، وهذه تهمة أرفضها وأنكرها».

وعند ذاك تحرك الرجلان فى اتجاهى، ولكن وكيل النيابة تدخل وقال لى: هذا يكفى، اجلس وأجب على أسئلتى». وكان أمامه على المكتب كومة من الكتب برز منها كتاب بعنوان: «القط والفأر: تقنيات الاستجواب والتحقيق» وكان الكتاب صادرا عن دار نشر أمريكية

شهيره. وأبرز وكيل النيابة - وكان اسمه عبدالغفار - التقرير الذي كتبته ووقعته وسألني: «هل كتبت هذا؟» فأجبت: «نعم هذا خطي بالتأكيد، ولكني أرغمت على الكتابة لمدة اثني عشرة ساعة ولا أعرف بالضبط ماذا كنت أكتب». وحينئذ نظر إلى عبدالغفار نظرة حادة وقال: «إن رجلا يكتب مثل هذه الملاحظة في آخر الورقة يعرف تماما ما كان يكتبه. لذا أجب على أسئلتى بوضوح».

وهكذا بدأنا سلسلة من الأسئلة والاجابات على نسق القط والفأر. وحاول عبدالغفار جهده لأن ينصب لي الفخ حتى يجعلني أعترف بأنني كنت أعمل مع الأمريكيين. ولكنني كنت أعي تماما معطيات الموقف وكان من الصعب أن أقع في مثل هذا الفخ.

ولست بحاجة إلى القول أن صلاح نصر استشاط غضبا لما آلت إليه الأمور. سيتضح ذلك فيما بعد عندما حاول النائب العام اثتاء محاكمتي اقناع القضاة بأن الجواسيس المحترفين هم الذين لا تظهر أية دلائل ضدهم.

● الفصل السادس عشر



بين باب الخلق

تقع منطقة باب الخلق في ذلك الجزء من القاهرة الذي يفصل بين القاهرة القديمة، والقاهرة الجديدة. ويقع خلف ادارة الأمن العام بالقاهرة مبنى آخر على نسق السجون الفيكتورية، ويقول البعض أن هذا المبنى صمم على نسق سجون «ورم وود سكرابس» والمعروفة في تاريخ انجلترا بأنها كانت تستخدم في قهر

■ عبد الناصر والذين غُدرُوا به ■ ١٥٣ ■

الفقراء وذلك في القرن التاسع عشر. وكان هذا السجن هو بيتي الجديد لمدة الخمسة شهور التالية.

وبعد قضائي اسبوعين داخل السجن الحربى أخبرنى الحراس أنه بإمكانى أن آخذ حماما، كما سيعيروننى رابطة عنق حتى ألبسها لأظهر بمظهر لائق. وكان هذا محيرا لى، فهل كان سيزورنا أحد رجال البوليس البارزين أم ممثلون عن هيئة دولية أم كانوا سيطلقون سراحي واقتادونى إلى حديقة المعسكر حيث وجدت فى انتظارى أحد المصورين وكان يصطحب معه واحدة من تلك الكاميرات العتيقة. وقال الرجل محدثا اياى: أنا مصور صحفى من مجلة المصور؛ إن عائلتكم (فقد كان معى معتقلين آخرين) قلقة عليكم ونريد أن نريهم انكم بصحة جيدة. فنرجو أن تبتسموا».

منحنى منظر زرقة السماء وزهور الحديقة - بعد اسبوعين من الحبس - احساسا بالمتعة والدهشة فى ذات الوقت، فالسجن بالتأكيد يجعل المرء يعيد تقييم معاييرهِ وقيمه.

وبعد عدة أيام جاء الأمر بمغادرة المعسكر؛ فوصل إلى المعسكر ذات يوم مجموعة من العربات الضخمة التى تحمل رجال بوليس وجنود مسلحين. وفى أثناء مغادرتنا ساحت لى الفرصة للمرة الأولى لالقاء نظرة على زملائى من المعتقلين، وكان من بينهم بعض الأجانب الذين وضعوا فى عربات محترمة أما المصريون - وكنت معهم - فقد وُضعوا - كالبضائع - داخل عربات بضائع يحرسها عدد هائل من الحراس المسلحين.

وصلنا سريعا إلى سجن باب الخلق، ودخلت بنا العربات إلى ساحة السجن الذى كان محاطا بعدد كبير من الحراس المسلحين. وخرجنا جميعا من العربات ووقفنا فى صف على حائط المبنى. وفوق رؤوسنا كانت هناك نوافذ مستطيلة لعديد من الزنانات، وامتألت هذه النوافذ

■ الفصل السادس عشر ■

بالمتفرجين. وحالما وصلنا صرخ هؤلاء المتفرجون فوقنا قائلين: «مرحبا بالجواسيس الأجانب». وكنا مازلنا مقيدين وحركتنا محدودة. وواحدا تلو الآخر أخذنا إلى داخل السجن وفكت قيودنا ووضع كل واحد منا في زنزانة خاصة، وكانت الزنزانة لا تزيد مساحتها على ٢×٤ متر، وعلى الأرض كانت هناك بطانية أكلها السوس، وقال لي حارسى «هذا فراشك» كما أشار إلى الحائط حيث كان معلقا قربتين عتيقتين من الخيش، وقال: «واحدة لتقضى فيها حاجتك وأخرى للشرب، ولا تنزعج بخصوص الاختيار فكلتا القربتين قد استخدمتا لذات الغرضين». وبعدئذ تركنى الحارس ومكثت داخل زنزانتي.

وجلست وحيدا داخل سجنى، وكنت مندهشا إذ أن الأمر كان يتخذ صفة الدوام، ولكن أن أحبس من قبل وزارة العدل فهذا يعنى وجود محاكمة، ولكن لعلمى بأن عجلة القضاء فى مصر تدور ببطء شديد فقد أعددت نفسى لإقامة طويلة فى السجن. ومنحتنى الإقامة فى هذا السجن الفرصة لتقييم الأمور تقييما دقيقا أتمكن من خلاله وضع الخطوات التى يمكن أن أتخذها.

وكان وضعى آنذاك فى منتهى السوء، فقد وجدت نفسى فجأة تحت رحمة جهاز أمنى مصاب بالبارانويا وله مطلق الحرية فى فعل ما يراه بضحاياه. وهذه الحرية الممنوحة للمخابرات مكنتها من استخدام أعقد وسائل التعذيب البدنى منها والنفسى. وكان هذا التعذيب يمكن أن يؤدى فى النهاية إلى الوفاة. والشئ المضحك أن هذا الجهاز كان يتذرع بالشعارات الوطنية والقومية لتبرير جرائمه.

وكان على آنذاك أن أضغ لنفسى منهجا يمكن من خلاله حماية نفسى من هذا الموقف المحبط الذى قد يؤدى بى إلى اليأس والاكتئاب. والسلاح الوحيد الذى كنت أملكه لتحقيق ذلك هو عقلى. إن عقل الانسان هو كيان هائل وهو — عند المتصوفين — يمثل حلقة الوصل

بين الانسان والله. ويمكن للعقل الانساني أن يكون مصدر قوة وطاقة كما يمكن أن يستخدم أيضا لاستنفار قدرة الانسان وسلطته. وهذا ماكنت أحتاج إليه.

وكان الحراس المعينون لحراستنا في جهل شديد، وكان منظرهم يوحى بالغلظة والعنف. ولكننا في نهاية الأمر كنا تحت رحمتهم وكان يجب على أن أضع سلامتي وأمنى في الاعتبار. ولكنى عندما قيمت الموقف تقييما سريعا وصلت إلى بعض النتائج. وأود هنا أن أشير إلى كتاب كنت قد قرأته منذ بضعة سنوات بعنوان «الطريق إلى وندور» وكان الكتاب يدور حول سجين حرب أسر في الحرب العالمية الأولى في احد سجون تركيا، ويصف الكتاب كيف استطاع هذا السجين ومن معه الهروب من معسكر الأسرى مستغلين جهل السجانين الأتراك وایمانهم بالخرافات. وكان حراسنا هم أيضا من تلك النوعية التي تعتقد في عالم الجن والسحر والأرواح الشريرة. دفعنى ذلك إلى اتخاذ بعض الخطوات البسيطة والایجابية في ذات الوقت. فباستخدام قلم رصاص مكسور وجدته على أرضية الزنزانة بدأت أنقش على الحوائط سورتين من القرآن، وبعض العبارات التي تشير إلى الجن؛ وكانت الآيات التي كتبتها من سورتي «الفلق» و«الناس» اللتين ورد فيهما ذكر الجن كثيرا.

وكان تأثير هذه الكتابات سريعا، فعندما رأى الحراس هذه الكتابات كانوا يترددون في دخول زنزانتي، فقد قرأوا هذه الكتابات وبدأوا يظنون اننى على اتصال بقوات الشياطين، وهكذا بدأوا يتجنبوننى باعتبارى رفيقا لقوات الشر والشياطين.

وبدأت أنقمس الدور، واستخدم الوعيد أحيانا مع بعضهم قائلا له بأنه سينقل إلى سجن الواحات كما كنت ألجأ للمديح وقول البشارة في أحيان أخرى اذا ما لزم الأمر ذلك.

■ الفصل السادس عشر ■

. أما ردود أفعال الضباط المتعلمين الذين تناهى إليهم هذا الأمر فقد كانت مختلفة، فتقييمهم للموقف كان نابعا من خبرتهم بالظروف السياسية في مصر، وعلى وجه الخصوص خبرتهم بالأعيب صلاح نصر. فأعتقد أن هؤلاء الضباط كانوا يعتقدونني عميلا كبيرا للمخابرات المصرية تم زرعى داخل سجن باب الخلق لمراقبة السجناء الأجانب وعويس وزملائه فضلا عن طاقم السجن نفسه.

وبعد قضائي بعض الوقت في السجن تعرفت على بعض زملائي واكتشفت أن الأجانب المعتقلين كانوا يمثلون البعثة الدبلوماسية الفرنسية بأكملها وعلى رأسها السفير «هنرى ماتى» كما كان معنا مصريون أيضا أشرت إليهم في فصل سابق.

والجدير بالذكر أن وصولنا إلى هذا السجن أثر على الروتين المتبع فيه، فحالما وصلنا مع مجموعة المسجونين الأجانب وصلت الأوامر من الرئاسة بتهيئة السجن لاقامة الدبلوماسيين الأجانب.

لكننا سريعا ما وجدنا أنفسنا أمام الروتين والتقاليد العادية المتبعة في السجن المصرى. فقد تم وضع السجناء من كافة الفئات مع بعضهم البعض، فاجتمع النشال مع القاتل مع اللص المحترف مع الجاسوس، إلى آخر هذه القائمة.

كما كان داخل السجن فئة «السريرية» الذين كانوا يجمعون أعقاب السجائر ويصنعون منها أرخص أنواع السجائر وهو ما كانوا يسمونه بالسجائر «السامسون أرضى». وكانت هناك فئة أخرى من المسجونين وهى تلك الفئة التى تأتى دائما في الشتاء إلى السجن وذلك برغبتها في الاستمتاع بدفء السجن ووجباته المنتظمة.

وعلى الرغم من أننا كنا في زنزانات مفردة إلا أن فرصا هائلة قد سنحت لنا للتحدث مع بعضنا البعض وتكوين علاقات مع المسجونين الآخرين. فبعد الظهر كنا نضع الكراسى أمام باب الزنزانة ونقف

■ سجن باب الخلق ■

عليه حتى نصل للنافذة والتي كانت وسيلة الاتصال بيننا. وكانت حياتنا الاجتماعية داخل السجن تبدأ في السادسة مساءً، فكنا في ذلك التوقيت اليومي نتبادل الحديث مع بعضنا البعض حتى تعارفنا جميعاً.

فضلاً عن الدبلوماسيين الفرنسيين كان هناك ما يقرب من ستة جواسيس آخرين في مجموعة الزنانات المقابلة لزنانتى، وكان على رأس هذه المجموعة اقتصادى كبير كان يمد سفارة الولايات المتحدة باحصائيات عن الانتاج الزراعى المصرى. واعتبر صلاح نصر ذلك جريمة تخاير مع الأعداء والتي كانت عقوبتها لا تقل عن ٦ سنوات سجنًا مع الأشغال الشاقة.

كما تم القاء القبض على اثنين من موظفى السفارة الأمريكية بتهمة التخابر مع العدو. كما كان أيضاً من بين المسجونين طيار مصرى اتهم باعطاء معلومات للأمريكيين عن الملامح الجغرافية لمطار القاهرة عند الهبوط، وهى حقائق يعرفها أى مسافر يصل إلى ذلك المطار. وكان معنا أيضاً سجناء آخرون بارزون هم القائمقام داود عويس ووحيد رمضان ولطفى واكد وضابط آخر. واكتشفنا بالتدريج أن هؤلاء هم الرجال الذين دبروا المؤامرة التى نعاقب نحن عليها. وكنت أشعر أثناء اقامتى داخل السجن بالعيون تحيط بى فى كل مكان لترى إن كان لى أى صلة بالدبلوماسيين الفرنسيين، ولذلك كان على أن أخذ حذرى.

● الفصل السابع عشر ●



حكايات من السجن

صحوت في أحد الأيام على صوت منصور السجان الذي جاء لى قائلاً: «ألكسندر باباديلو السجين اليونانى يسبب لنا مشاكل فهل تأتى لتتحدث إليه انه يتصرف بطريقة جنونية». ولم أكن مندهشاً فباباديلو كان فى حالة سيئة فى الفترة الأخيرة. وعلى مدار الاسبوع الماضى كنت دائماً أسمع صوته فقد كان جارا لى

■ عبد الناصر والذين غدروا به ■ ١٥٩ ■

بالزنزانة المجاورة، وكان صوته يأخذ في الخفوت شيئاً فشيئاً وهو يقول: «أنا ألكسندر باباديلو.. أحضروا لي القنصل اليوناني وتوقفوا عن تعذيب أمي». وتكررت هذه الجملة مرات عديدة على مدار الأسبوع الماضي وكان يقطعها صرخات السجانين وضرباتهم. فقلت لمنصور: «أعتقد أنك تعرف أن الرجل مجنون» فابتسم منصور قائلاً: «يقول الدكتور أنه يدعى ذلك ويخدعنا».

وكننت قد ظلت أسمع باباديلو يعيد نفس جملة طوال الخمسة أيام الماضية دون أن يتوقف، ولا يمكن لأي شخص عاقل أن يظل يصرخ طوال هذه الفترة؛ فقلت لمنصور: «إذا أردتني التحدث إليه يمكنني أن أفعل ذلك لأجلك». فأخذني منصور إلى زنزانته.

وفي زنزانته رأيت باباديلو عبارة عن كومة من اللحم متكومة في أحد أركان الحجرة، وحالما رأى منصور بدأ يرتعش ويهذى. فنظرت إلى منصور وقلت له: «لماذا ضربته؟ ماذا ستفعل إذا قتلته بالخطأ؟» هل تعتقد أنه سيوجد من يدافع عنك؟ وهذا الرجل يوناني، وإذا تدخلت سفارته فسوف تحدث مشكلة دولية وسوف تعتبر قاتلاً وسوف تحاكم من قبل السلطات، فلماذا اذن تتحمل مسؤولية ضرب سجين أعزل؟ فنظر إلى منصور وكأنه لا يفهم: «لقد قال الدكتور انه يدعى». فقلت له: «أنت تعلم يا منصور أن الدكتور لن يعطى تشخيصاً آخر فهو يخشى أن يتهم بأنه شريك للسجين. وعلى أية حال لا بد أن تترك الزنزانة الآن حتى لا تزداد حالته سوء». فحاولت الاقتراب منه وتهدة روعه، وكننت أكله بالفرنسية. وبعد حوالي نصف ساعة بدأ يسترد وعيه ويشعر بالأمان. وكننت أعرف أن هذا الرجل بحار، وكان يعمل كربيان لنادي يخت المعادي. وفي ذلك الوقت كننت أملك أنا أيضاً يختاً اسمه «سياستا ٢» فقلت له: «باباديلو أريد أن أريك صورة لقاربى، وعلى قطعة من الورق ابتدأت أرسم صورة لياختى، وهذا

■ الفصل السابع عشر ■

جعله ينتبه فأخذ منى القلم وابتدأ هو أيضا يرسم صورا لليخت الذى يحلم به وابتدأ يناقش معى تفاصيل التصميم الذى رسمه.

وقلت له ألا يخشى منصور واذا احتاج إلى أى شىء يمكنه أن ينادينى وسأحاول أن أساعده.

وعندما عدت إلى زنزانتى بدأت أفكر فى أمر أطباء هذا السجن وغيرهم ووجدت أنهم قد يضحوا أحيانا كثيرة بضميرهم حتى يضعوا أنفسهم فى مأمن من التصرفات الحمقاء لرجال مخابرات أصيبوا ببارانويا متطورة أدت بهم للشك فى كل من حولهم.

وهنا قصة أخرى جديرة بالذكر. فهى قصة عن سجينين كانا يقيمان بزنزانتين قريبتين، احدهما يدعى محمد والآخر على وكان محكوما عليهما بالاعدام لقتل سيدة سيئة السمعة. وكان «فؤاد» زميلنا الآخر ذا ميول صحفية فرتب حوارا مع «محمد». وكانت القصة مثيرة ومزعجة. فقد كان محمد يعمل على عربة حنطور، وكان قد أتى إلى امبابة ببيع الحلى والمجوهرات ليقدمها لزوجته المستقبل. وأول ما جاء قرر أن يقضى ليلته مع عاهرة، وعند عودته فى الصباح إلى حنطوره اكتشف أن رفيقة الليل سرقت منه المجوهرات، فرجع إليها ولكنها أنكرت سرقتها لتلك المجوهرات. ولكنه وجدها فى غرفتها فتشاجر معها وقتلها.

ونصحه صديق له ادعى معرفته بالقانون بأنه اذا اعترف شخصان بجريمة واحدة فلا يدان أيهما. فقرر محمد أنه بحاجة إلى شريك. ولم يجد أمامه إلا على، وكان هو أيضا صاحب الحنطور، وكان على يحب محمد ويطيعه، وسريعا ما ألقى البوليس المصرى القبض عليهما للمحاكمة. والمشكلة الكبرى أن المحامى الذى عينته المحكمة للدفاع عنهما لم يكن فى تركيزه الكامل فكان يقول أقل القليل

■ حكايات من السجن ■

للمحكمة، كما كان القاضى فى ذلك اليوم فى حالة سيئة، وهكذا حكم على الاثنين بالموت.

وبعد بضعة أسابيع جاء الأمر بتنفيذ حكم الإعدام فى محمد وعلى، وكان من المقرر أن ينفذ الحكم فى الثامنة من صباح اليوم التالى، فأعد طاقم السجن نفسه للتقاليد المتبعة فى مثل هذه الحالة. وكان الجميع يشاركون الاثنين آخر لحظات حياتهم.

لكن القصة انتهت نهاية سعيدة فقد قال القاضى اندراوس لمسئولى السجن. «هل أرسل الخطاب للنائب العام؟ وإذا حدث ذلك فلا يمكن أن ينفذ الحكم دون استماع». فوصل مأمور السجن وسأل: «اية خطاب؟ لابد أن خطأ قد حدث». ولم يكن المأمور قد أرسل هذا الخطاب، فانتهزنا جميعا هذه الفرصة وقلنا للمأمور انه اذا لم يكن هذا الخطاب قد أرسل فسنعتبره مسئولا عن عدم تنفيذ القانون تنفيذا صحيحا وسنتخذ كافة الاجراءات ضده.

فأرسل هذا الخطاب إلى النائب العام الذى عندما تعرف على تفاصيل القضية أمر بإعادة النظر فيها، وفى خلال بضعة أشهر أطلق سراح محمد وعلى.

● الفصل الثامن عشر ●



الباب المزدوج من الحياة داخل السجن

ليس السجن بهذه الدرجة من السوء وذلك اذا ما تألفت معه. فقد كانت الشهور التي قضيتها في باب الخلق مريحة نسبيا. فقد كان من الممكن لزوجتي وعائلتي أن يزوروني كل اسبوعين، وكان الطعام والأشياء الأخرى ترسل لي من البيت، كما لا يمكن للمرء أن ينكر ميزة العزلة بعض الوقت عن متاعب وضوضاء الحياة بالخارج.

كما لا يمكن انكار بعض الامتيازات الأخرى، فقد كانت تلك الفترة من أكثر الفترات التى أكلت فيها جيدا فقد كانت زوجتى وأمى تتنافسان فى احضار أشهى الطعام وألذه. كما كان هناك بعض الأصدقاء الذين يرسلون بعض الكتب للقراءة وكذلك بعض المجلات.

وعندما جاء ميعاد المحاكمة شعرنا بأنها ستتحول إلى شىء أشبه بقصص أليس فى بلاد العجائب.

وعندما قرأ الأستاذ محمد عبدالله المحامى الذى وكلته عنى قرار الاتهام ضحك وقال لى: لقد قرأت هذه القضية، ولا أرى أى شىء ضدك، وكل ما أريدك أن تقوله هو الجملة التالية. لا يوجد دافع أو أقل سبب يجعلنى أخون بلدى، ولا تزيد على ذلك حرفا، وثق انك برىء ولا يوجد دليل ضدك والمحكمة ستحكم بعدم توافر الأدلة.

وبإقتراب المحاكمة بدأنا نشعر ببعض الراحة داخل السجن، كما أن السجنائين أنفسهم كانوا يشكون فى مدى صحة التهم الموجهة إلينا؛ وفى ذات الوقت كانت القضية قد أصبحت شأننا عالميا، فالجنرال ديجول فى باريس كان فى غاية الغضب وذلك بسبب المعاملة السيئة التى عومل بها الدبلوماسيون الفرنسيون، فبهذا الشكل كانت مصر قد اخترقت القوانين الدولية الخاصة بالحصانة الدبلوماسية. وهكذا التقطت وسائل الاعلام العالمية هذه القصة وعقدت فرنسا الكثير من الاجتماعات والمباحثات الدبلوماسية التى كانت تهدف إلى اصدار عقوبات اقتصادية ضد القاهرة.

وفجأة وجدنا وفدا فرنسيا قادما خصيصا من باريس لمتابعة مجريات القضية، وكانت سيماهم توحى بأنهم كانوا خارجين لتوهم من فيلم سينمائى عن الثورة الفرنسية.

وفجأة سمعنا صوتا جهوريا روتينيا قائلا: «محكمة» معلنا بذلك

■ الفصل الثامن عشر ■

عن بدأ مجريات المحاكمة، فوقفنا ودخل القضاة وتبعهم عضو النيابة، ثم جلسنا جميعا. وكان النائب العام على نورالدين قريبا جدا منى ولاحظت بشيء من الهلع أن له ستة أصابع في كلتا يديه. وكان ضخما وطويلا وذو وجه وسيم، وكانت ملامحه توحى بأنه من خليط مصرى تركى.

وهكذا بدأت المحاكمة واستمرت قرابة شهرين، وكنا نغادر السجن لمدة ٤ أيام فى الأسبوع، كما كنا نظل لعدة ساعات نشاهد النيابة وهى تحاول أن تثبت للقضاة أننا جواسيس خطرون. ولكن النيابة فشلت فى الربط بين مؤامرة داود عويس والقبض على الدبلوماسيين الفرنسيين وذلك لعدم وجود أية دلائل. كما فشلت النيابة فى تقديم دلائل على عمل البعثة الفرنسية بالتجسس، فالتقارير السياسية التى كانوا يكتبونها لم تكن إلا من قبيل عمل الملحقين السياسيين الروتيني.

كما اتضح أن كل الاتهامات التى كانت موجهة إلى المصريين كانت تفتقر لأية دلائل واضحة، وهكذا ظهر سريعا أن القضية لم تعد اعدادا جيدا كما اتضح أن النيابة قد أعدتها بشكل يظهر تحيزا وهو الأمر الذى هز صورة عبدالناصر وصورة مصر بالخارج.

وجاءت قضيتى فى نهاية المحاكمة. وكان على نورالدين فى اضطراب بالغ ولم يكن يدرى ماذا يفعل. واختار فى النهاية أن يكون مدخله معتمدا على الاتهامات السريعة والمبالغ فيها وغير المنطقية، فقال: «ان عادل ثابت هو نتاج للملكية التى ترعرت فى قصور الرجعية؛ كما كان يتآمر مع عناصر رجعية فى الجيش لاستعادة الحكم الملكى، كما كان يعمل أيضا مع السفارات الأجنبية لتجنيد جواسيس مصريين».

ولكن القاضى وجه حديثه إلى على نور الدين قائلا : « ولكن

ما الوقائع التى تستند إليها؟ وما التهمة التى تدين بها عادل ثابت؟»
فقال على نورالدين: «انه يستخدم وظيفته كناشر ومحرر فى عمل لقاءات مع الوزارات وأخذ معلومات مهمة منهم يرسلها إلى عملائه الأجانب» قال القاضى: «أذكر لنا أسماء هؤلاء الوزراء». فقال نورالدين «دكتور محمد فوزى وزير الشؤون الخارجية والدكتور عبد المنعم القيسونى وزير المالية والاقتصاد».
وهنا تدخل محامى قائلا للمحكمة. «أرجو من المحكمة استدعاء هؤلاء الوزراء ليوضحوا لنا موقفهم».

وأخيرا مثلت أمام القاضى وكان سؤاله لى: «ماذا لديك لتقول عن نفسك؟» فقلت: «لا يوجد سبب أو دافع يجعلنى أخون بلدى». فقلت: «إذا كان كل الدبلوماسيين الأجانب يعتبرون جواسيس والاتصال بهم يعد جريمة فإننى أطلب من المحكمة توجيه الاتهام إلى كل الصحفيين وكذلك رئيس قسم الاعلام القائمقام عبدالقادر حاتم لأنه يرتكب مثل هذه الجرائم يوميا». وهنا توقف القاضى عن الاستجواب؛ وقررت الهيئة التأجيل بعض الوقت لدراسة القضية.
وهكذا انتهت هذه القضية بتصريح من على نورالدين قال فيه: «لمصلحة السياسة العليا قررت هيئة المحكمة تأجيل هذه المحاكمة لأجل غير مسمى، وسيطلق سراح المتهمين حالا».

وهكذا انتهت قضية الدبلوماسيين الفرنسيين وشركائهم المصريين. وأود الإشارة هنا إلى شىء مهم وهو أن تأجيل القضية كان سببه هو الضغط على الفرنسيين حتى يوقعوا على معاهدة «الإيان» (١٨ مارس ١٩٦٢) والتي تمنح الجزائر بمقتضاها الاستقلال، ويطلق سراح بن بيلا ورفقائه.

ومن ناحية أخرى فقد بقى داود عويس وزملاؤه لعدة سنوات داخل السجن.



تدارات حائط الشروع من البن

بعد اطلاق سراحى قال السيد عبدالغفار مساعد
النائب العام: « أمل ألا تحبطك هذه التجربة، فأنت
باعتبارك صحفيا يجب أن تتوقع مثل هذه الأشياء،
فالحياة في نهاية الأمر هي سلسلة من الكبوات
والانتصارات، ويجب أن نعبر فوق لحظات الكبوات في
حياتنا.

■ قرارات ما بعد الخروج من السجن ■

وكان هذا ما وجب على فعله لاسيما اننى تيقنت أننا فى قبضة نظام حاكم قوى وشاذ يقوم عليه أناس متعسفون، ويلعب فيه دورا بارزا جهاز مخبرات يعامل عبدالناصر باعتباره إلها.

ولم يكن هذا إلا ميراثا وراثاه عن الفراعنة حيث الفرعون الإله يتلو الكهنة حتى أقل المواطنين.

بعد بضعة أيام اتصل بى المحامى قائلا: «ألم تذهب إلى القصر الجمهورى لتشكر الرئيس على اطلاق سراحك».

فقلت: «ولماذا أشكره وهو الذى سجننى فى الأصل». فقال المحامى: «لك الحرية فى أن تحب حياة السجن ولكن فكر فى زوجتك وعائلتك».

وهكذا وعلى مضض منى ذهبت إلى قصر القبة حيث استقبلت استقبالا حافلا وكأنتنى سفير، وقال لى أمين القصر «اتبعنى» فأخذنى إلى حيث وجدت أمامى كتابا فخما مجلدا بالذهب وقال لى: «هنا يمضى الخارجون من السجن وسأملى عليك الصيغة المتبعة».

فكتبت «يعبر عادل محمود ثابت الخارج من السجن حديثا عن شكره وامتنانه لسيادة الرئيس لاطلاق سراحه. امضاء: عادل ثابت - خادمكم المطيع.

وكنا قبل اطلاق سراحنا قد مررنا ببعض الاجراءات، فمررنا أولا على وزارة الداخلية للحصول على التصريح الرسمى والوثائق التى تثبت اطلاق سراحنا، وهناك تم تصويرنا واعطاؤنا رقما يوضح ذلك بملفاتنا فى الوزارة، ومثل هذه الملفات يمكن استخدامها فيما بعد كذريعة للقبض علينا من يعرف؟

وبعد اطلاق سراحى قضيت بقية العام على يحتى الخاص بالاسكندرية طلبا لبعض الراحة والاسترخاء. ولكن ما أفسد على الأمور انى اكتشفت انى كنت مراقبا، وخلصت إلى النتيجة التالية: إن

■ ١٦٨ ■ عبد الناصر والذين غدروا به ■

المخابرات لم تفرغ من أمرى بعد

تطورت الأمور بعد ذلك عندما زارنى صحفى كان معروفا عنه أن المخابرات قد ابتزته وضمته إليها؛ وكانت المخابرات تستخدمه كحلقة الوصل بينى وبينهم؛ وعندما جاءنى قال لى «لدى رسالة لك. إن الرئيس يفتقد جدا مقالاتك ويريد أن يعرف متى تنوى الكتابة مرة أخرى؟ وقد لقيت مقالاتك عن البعثية استحسانا كبيرا. ويطلب منك الرئيس أن تكتب مقالتين أو ثلاثة لمجلة روز اليوسف وستلقى مقابلا جيدا».

لقد أزعجنى هذا أيما ازعاج. فإذا وافقت على العمل لحساب حكومة عبدالناصر فسأصبح جزءا من هذا النظام، وفي نفس الوقت اذا رفضت كنت سأغامر بقضاء فترة أخرى فى السجن. لقد كان الموقف معقدا للغاية. وكنت قد قدمت على طلب تأشيرة خروج ولكن مرت شهور، ولم أحصل عليها فتقدمت بشكوى لوزارة الداخلية. وهناك أخبرنى اللواء سيف اليزل صراحة أن الأمر ليس بيديه. فالمخابرات هى التى كانت تتحكم فيه. كما أخبرنى أيضا بكل شجاعة «ولا تظن انه كانت لنا يد فى القبض عليك وإيداعك السجن، لم يكن الأمر بأيدينا. فقد كنا نعرف جيدا انك برىء».

وفى تلك اللحظة تيقنت بأننى يجب أن أغادر البلد لاسيما أيضا أن على صبرى الذى لجأت إليه لحل مشكلتى قد قبض عليه. لقد بدأت أعراض البارانونيا فى الظهور والتطور لدى الرئيس.



الشرع إلى خارج مصر

أصبح السؤال الذي كان يؤرقني في تلك الفترة هو كيف يمكنني الخروج من مصر دون أوراق سفر ودون أن يتعقبني رجال المخابرات. إن فكرة الهروب على يختي هي فكرة مستبعدة لسببين: أولاً لم يكن هذا اليخت صالحاً للابحار في المياه العميقة، ثانياً فقد كان هذا اليخت مرصوداً من قبل رجال المخابرات. وفكرت

■ عبد الناصر والذين غدوا به ■ ١٧١ ■

■ الهروب إلى خارج مصر ■

بالسفر بأوراق مزيفة، ولكن للأسف قضيتي الأخيرة جعلت منى شخصا معروفا للجميع.

وبعد أن أعيانى التفكير ابتسم لى القدر عندما قابلت «بيتر مايررانك». و«بيتر» كان صحفيا ألمانيا يعمل مراسلا لجريدة «داى فيلت» التى تصدر فى هامبورج. وكان كثير الذهاب إلى ليبيا من خلال حدود السلوم. وفى أحد أحاديثى عرض على المساعدة بالدفع بى إلى ليبيا، وهو عرض لم يمكننى تجاهله.

وناقشت مع بيتر الخطط الممكنة لمثل هذه العملية. وقررنا أن أختبئ فى مؤخرة عربته «الأوبل»، وحتى يمكننى التنفس ثقبنا الافريز خلف الكراسى الخلفية.

وكانت الخطوة التالية هى التفكير فى استراتيجية ما لتشويش انتباه رجال المخابرات. وكانت هذه خطتى: فقد أشعت اننى سأعمل فى مجال تعويم السفن وسأستخدم «يختى» كبدائية، فقد كان هناك العديد من السفن الغارقة فى الاسكندرية، ومن المؤكد أن هذه الفكرة قد تثير الشك باعتبار اننى يمكننى الهرب باستخدام يختى.

وبالفعل لكى أسبغ المصادقية على هذه الشائعة توجهت إلى صديق لى من رجال الأعمال وكتبت معه عقدا لرفع سفينة غارقة فى قناة السويس، ولكى تنجح هذه المهمة طلب منى احضار بالونتين ضخمتين، وكانت هذه البالونات ثقيلة للغاية، فالواحدة منها يمكن أن ترفع من ٤٠ إلى ٦٠ طنا، وعندما تملأ هذه البالونات فإنها تجذب الأنظار فوضعت تحت مرأى من المخبرين الذين كانوا يراقبوننى واحدة من هذه البالونات أمام منزلى، وبالفعل كان لهذه المناورات آثارها الكبيرة فقد وصلنى من الاسكندرية أن عدد المخبرين الذين يراقبون يختى قد زاد.

وفى نفس الوقت أعددنا خطة بسفر زوجتى وابنى الصغير

■ ١٧٢ ■ عبد الناصر والذين غدروا به ■

■ الفصل العشرون ■

بالطائرة إلى فرانكفورت، فقد كانت زوجتى تحمل الجنسية الأمريكية ولا يمكن لأحد أن يمنعها من السفر كما كان ابنى محمود صغيرا. وكنت أعددت لأن أقوم بعملية المخابرات يوم الجمعة حيث أن نسبة كبيرة من رجال المخابرات يأخذون اجازاتهم الاسبوعية فى ذلك اليوم. وبعد توديع زوجتى وابنى خططت للذهاب إلى الاسكندرية لقضاء اليوم مع والدى والدتى الذين لم أخبرهما بأية تفاصيل عن خططنا. وسبب اخفائى لهذه الأسرار عن والدى اننى كنت أريد حمايتهم وابعادهما عن أى موضوع يتعلق بى حتى لا يتعرضا للأذى.

وبدلا من العودة إلى القاهرة قضيت المساء مع صديقة روسية قديمة كانت مهمتها هى أن تذهب لوالدى بعد رحيل لتطمئنهم على. وفى الخامسة صباحا وصل بيتر بعربته الأوبل ومعه زوجته وابناه، وبالسيارة انطلقنا جهة الغرب نحو مرسى مطروح ومنها إلى السلوم ثم الحدود الليبية.

ووصلنا إلى الحدود ورسم بيتر على وجهه ابتسامة عريضة وجهز بعض علب السجائر التى قدمها لرجال الجمارك والبوليس، وحيث أنه كان معروفا من الجميع فلم تتعرض السيارة لتفتيش كبير. وهكذا انطلقت بنا السيارة حتى وصلنا إلى الجانب الليبى؛ وأصبحت أخيرا بعيدا عن متناول الخطر.

وعلى مسافة معقولة من الحدود توقف بيتر بالسيارة حتى يخرجنى، وكنت قد قضيت فى مؤخرة السيارة قرابة الساعة ووجدت نفسى داخل ليبيا وكان معى جواز مصرى ولكن بدون تأشيرة، وكان لى بعض الأصدقاء فى ليبيا الذين بإمكانهم تسهيل الأمور فأحد أصدقائى كان يدعى محمد على نشأت كان يعمل مستشارا اقتصاديا للحكومة الليبية وكان بإمكانه تدبير كل شىء.

وانتقلنا بالسيارة إلى بعض مدن ليبيا حتى وصلنا إلى «تريبولى»

وكان الأمن شديداً في هذه المدينة، ولم يكن بإمكانى أن أنزل في أى فندق دون أوراق السفر. فاتصلت في الصباح بالدكتور العنيزى مدير البنك الوطنى، ووعدنى بأن يكلم رئيس الشرطة وطلب منى أن أمر عليه؛ وبعد ذلك علمت منه بأن رئيس الشرطة ينصحنى بعدم الظهور على السطح لأنه كانت لديه أوامر بالقبض على أى لاجئ مصرى، كما لم يرد الملك ادريس حدوث أزمة مع عبدالناصر؛ كما نصحنى رئيس الشرطة بالتوجه إلى سفارة المملكة العربية السعودية لأطلب اللجوء.

ولحسن حظى تدخل القدر للمرة الثانية فقد قابلت أحد أصدقائى القدامى مصادفة وكان اسمه محمد على كرامر، وكان «كرامر» واحداً من أبرز تجار المجوهرات في القاهرة، وكان قد أسلم وأصبح أحد أعضاء جماعة الاخوان المسلمين. وكنت منذ فترة قد تعرفت على صديق آخر يدعى «كيث كولينز» كان قد ترك مصر بعد الشك في عمله كجاسوس، وكنت قد سمعت أنه أصبح يعمل في مجال البترول. وسألت «كرامر» عنه فقال لى أنه في ناديه الذى يملكه وأنه سيذهب إليه الآن. وذهبت مع «كرامر» لأجد نفسى وكأئننى في قطعة من كاليفورنيا فقد أعد كيث هذا النادى الذى يطل على الشاطئ بحيث اكتسب طرازاً أمريكياً محضاً.

واستقبلنى كيث بالأحضان وأعطانى حجرة في فيلته الفخمة وقضيت فيها بضعة أيام من الترف والمتعة. وكانت الخطة أن أستعير جواز «بيتر» وبعد اقلاع الطائرة يذهب كل من كيث وبيتر للإبلاغ عن سرقة جواز «بيتر».

ومر كل شئ بسلام، وكان هناك احتمال ضئيل أن يتكلم ضابط الجوازات الألمانية، فألمانييتى لم تكن على مايرام. ومن حسن حظى أن مغادرة ليبيا كانت تتطلب وجود ثلاثة تأشيرات: واحدة من وزارة الداخلية وأخرى من البنك الوطنى وثالثة من ادارة المخابرات، وهذا

■ الفصل العشرون ■

العدد الكبير من التأشيرات لم يعط الفرصة لضابط الجوازات للتفكير في أى شىء آخر. وهذا ما حدث بالفعل. فالموظف فحص التأشيرات وختم الجواز ثم حيانى في النهاية.

والشىء الذى أفزعنى انى سمعت في الميكروفون أن السيد بيتر مايررانك كان مطلوباً في مكتب أليطاليا (وهى شركة الطيران) أفزعنى ذلك أشد الفزع، ولكنى عندما ذهبت وجدت أن الأمر كله انه كان لى باقى نقود لدى مكتب الطيران.

وفي النهاية أقلعت الطائرة وتطلع إليها بيتر وكيث بارتياح شديد، ثم أرسلنا برقية إلى زوجتى تقول: «ستصل البضاعة المطلوبة إلى فرانكفورت على رحلة أليطاليا رقم ١٥ بعد الظهر».

وفي ذلك الوقت كانت زوجتى قد اصطحبت محمود إلى حديقة الحيوان، وعندما عادا وجدنا البرقية، وبعد دقائق معدودة كنت قد وصلت إلى الفندق، واجتمع شمل الأسرة من جديد.

المفهرس

الصفحة	المحتوى
٥	تمهيد
٩	مقدمة
١٧	الفصل الأول: الأيام الأولى للثورة
٢٩	الفصل الثاني: الجريدة الاقتصادية السياسية المصرية
٣٥	الفصل الثالث: البحث عن أولاد الناس
٥٧	الفصل الرابع: العلاقات مع الولايات المتحدة
٦٥	الفصل الخامس: الثورة المضادة واستبعاد نجيب
٦٩	الفصل السادس: رحلة إلى فلورنسا: اجتماعات ولقاءات خطيرة
٧٧	الفصل السابع: لاشيء غير الحقائق عن مصر
٩١	الفصل الثامن: ما العروبة ومن العربى؟
٩٧	الفصل التاسع: الشرق وحرب السويس
١٠٥	الفصل العاشر: حرب السويس عام ١٩٥٦
١١٣	الفصل الحادى عشر: زيادة النفوذ الشيوعى
١١٩	الفصل الثانى عشر: مشاكل فى سوريا - مؤامرة ضد الرئيس
١٢٧	الفصل الثالث عشر: عواقب قضية المؤامرة
١٣٣	الفصل الرابع عشر: فى سجن الفراغنة الاستجواب على الطريقة الأمريكية
١٤٥	الفصل الخامس عشر: فى اليوم التالى: ظلام فى الظهيرة
١٥٣	الفصل السادس عشر: سجن باب الخلق
١٥٩	الفصل السابع عشر: حكايات من سجن باب الخلق
١٦٣	الفصل الثامن عشر: الجانب المشرق من الحياة داخل السجن
١٩٧	الفصل التاسع عشر: قرارات ما بعد الخروج من السجن
١٧١	الفصل العشرون: الهروب إلى خارج مصر

رقم الايداع ٣١٦٥ / ٩٧

الترقيم الدولى

I. S. B. N 977 - 08 - 0591 - 2

■ ١٧٦ ■ عبد الناصر والذين غدروا به ■